رواية

پول بورچيه

التلميذ

ترجمة : عبد المجيد نافع

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

التلميذ

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

پورچيه، پول، 1852-1935
التلميذ: الرواية الخالدة/ تأليف پول پورچيه، المترجم عبد المجيد نافع. – القاهرة.
أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017، 208 ص 14.5×21.5 سم.

1- القصص الفرنسية
أ- نافع، عبد المجيد (المترجم)
ب- العنوان 843

رئيس التحرير: طارق هاشم

المؤلف: پول پورچيه

المترجم: عبد المجيد نافع

طبعة أقلام عربية الأولى 2017/ 2018

رقم الإيداع: 16247/ 2017

ISBN: 978-977-5217-45-5

العنوان: 1 كريم الدولة – أمام جروبي – طلعت حرب

تليفاكس: 20225740228 +   موبايل: 201011745806 +

info@daraqlam.com

Aqlam Arabia Bookstore

www.daraqlam.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار أقلام عربية للنشر والتوزيع

التلمــيــذ

الرواية الخالدة

التي وضعها نابغة كتاب فرنسا

پول بُورچيه

ونقلها إلى العربية

عبد المجيد نافع

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

إهداء الرواية

إلى الشاب الذي يوشك أن يخوض معركة الحياة

إلى الشابة التي لا تلبث أن تنشئ جنودًا للوطن

أهدي هذه الرواية

ع. ن

المقدمة

وضع رواية "التلميذ" نابغة الأدب الفرنسي پول پورچيه وطالعتها غير مرة، فكانت تنازعني إليها نفسي. فآثرت أن أحبو بها طلاب الأدب الرفيع. وأحببت أن تضاف إلى تراث نهضتنا الأدبية وحرصت على أن أجلوها في حلة قشيبة. لتتماشى مع جلال الغاية التي قصد إليها الكاتب. وكلي رجاء، أن أكون قد وفقت إلى إحلال المعاني الغربية، في معان عربية ولئن كنت في بعض المواطن قد عمدت إلى شيء من التصرف، وقليل من الحذف، فإنما أردت أن أتفادى ما قد يصطدم مع الشعور الديني، وأتجافى عما يمكن أن يتعارض والتقاليد القومية، أو يخدش حياء العذارى، أو يبعث السأم في النفوس على أني كنت أمينًا على فكرة الكاتب، حريصًا على المبدأ الذي قصد إلى تحقيقه، فما أخللت بسياق الرواية، ولا شوهت الوقائع، ولكني وفرت على القراء بعض المسائل الفلسفية الجافة التي يستعصي فهمها على الذين لم يتوافروا على دراسة الفلسفة وفي الحق أن الكاتب لم يقصد إلى محض التسلية. بل عمل على ترويج فكرة، ومحاربة بدعة؛ ومحو ضلالة؛ والدفاع عن رأي، والذود عن مبدأ.

على أنه قد وفق إلى الجمع، بين روعة القصة، وجلال المعنى.

ولا أحسبني مخطئًا في اعتقادي أنه وضع قصته للخاصة والعامة معًا. فالخاصة ترى بها الفلسفة الناضجة، والآراء الحقة، والتحليل القوي الرائع، وكل أولئك يسوقه المؤلف في أسلوب ساحر، وقصص يستهوي الأفئدة. فأما العامة فتجدها أشبه الأشياء بالروايات البوليسية، حافلة بالحوادث العنيفة، فياضة بالمفاجآت المروعة.

ولم أَشَأْ أن أضيق دائرة الانتفاع بتلك الرواية الممتعة الشيقة، فأبرزتها في ثوب قشيب ترضى عنه بلاغة الخاصة، ولا يعسر على فهم العامة.

وما التحليق في سماء البلاغة إلا أن يكتب الكاتب ليفهم الناس، وما الإسفاف والابتذال إلا أن تضل، في شعاب ما يكتبه، العقول.

في أواخر القرن التاسع عشر طغت على فرنسا موجة الإلحاد، وعصفت بها ريح التنكر لكل شيء فكنت ترى نفرًا يجحدون الأديان جميعًا. ويتهجمون على كافة ما يقدسه مواطنوهم. وترى طائفة تنكر ما تواضع قومها على أنه شرف، واصطلحوا على أنه فضيلة، زعمًا بأن، الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والجمال والقبح، والشرف والانحطاط، إن هي إلا كلمات يطنطن بها الناس، دون طائل، ولا غناء.

واستسلم فريق من الشبان إلى الإباحية، جريًا وراء القائلين بأن قيمة الحياة في تحقيق أكبر قسط من اللذة والمتاع.

وعمد فريق آخر إلى اعتناق المذاهب الهدامة. فسخروا من النظم العتيقة، وهزأوا بالتقاليد البالية، وأعملوا معاولهم في بناء المجتمع ليقيموا على أنقاضه صرح المجتمع العصري الذي تتحقق فيه مبادئ العدالة والحرية والسعادة.

ووقف پول پورچيه في وجه تيار الإلحاد يصده، وعاصفة الإباحية، والاستهتار، والفوضى الفكرية، يدفع أذاها عن الشبيبة الفرنسية، لتكون خليقة بمجد فرنسا الطارف والتليد.

ولقد وفق في رواية "التلميذ" إلى أقصى حدود التوفيق.

وأرى حقًّا على أن أدع القارئ يشهد مصداقًا لما قلت.

وأرجو أن أكون قد ساهمت بنصيب في نهضتنا الأدبية.

عبد المجيد نافع

الفيلسوف الهدام

كان أهل مدينة "كونجزبرج" يراقبون حدثًا رهيبًا يقوِّض دعائم العالم المتحضر، إذ بدا يومًا للفيلسوف "عمانويل كنت" أن يغير وجهته في رياضته اليومية. وما لبث الفيلسوف غير بعيد حتى علم باضطرام نيران الثورة الفرنسية. وعلى الرغم من أن أهل "باريس" لا يجنحون إلى الاستسلام لمثل ذلك الوهم، فقد هال قطان شارع "جي دولا بروس" أن يروا، فيلسوفًا، إن لم تكن له شهرة "كنت" المستفيضة، فإنه يشبهه في دقته ونظامه، وحركاته وسكناته، ويزيد أنه أشد منه إيغالًا في الهدم – نقول هالهم أن يروه، على غير مألوف عادته، يبرح البيت في يوم من أيام شهر يناير من عام ١٨٨٧ حَوالى الساعة الواحدة. ذلكم هو "أدريان سكست" الذي آثر الإنجليز أن يخلعوا عليه لقب "سبنسر الفرنسي".

وكان البيت الذي اختاره لمقامه يقع في حي من تلكم الأحياء الباريسية التي ترفرف عليها أعلام الهدوء والسكينة، وكان سكان الحي يرقبون حركات بعضهم البعض. بل كانت الحركات البريئة تثير القيل والقال، وتطلق الإشاعات من كل عقال. فإذا بدا للنسوة أن يبدين زينتهن لغير بعولتهن، أصبحن مضغة في الأفواه. وإذا عرض

لأحد أن يبدل موعد غدوه ورواحه، استرعى الأنظار، واستثار فضول الناس. فما بالك بأدريان سكست، وسترى من الصورة التي نرسمها له، أنه رجل غريب الأطوار، خليق أن يسترعي الأنظار والأفكار، وحقًّا إن حياة ذلك الرجل تثير طلعة الراغبين في تعرف الطبيعة الإنسانية، وتعطيهم صورة صحيحة واضحة للفيلسوف الذي أشربت نفسه حب الفلسفة، وجدَّ في البحث وراء الحقيقة، وتمزيق القناع عن أسرار هذا العالم، وقصارى القول كل ما يثير العقل البشري، فوقف حياته على البحث والتقصي.

مضت أربعة عشر عامًا، من يوم أن وضعت حرب السبعين أوزارها، فأقبل مسيو سكست على شارع "جي دولا بروس"، واتخذ له في أحد البيوت مسكنًا. ولم يكن جاوز الرابعة والثلاثين من عمره، ولكن لا يبدو عليه شيء من غضارة الصبا، أو نضارة الشباب، فقد بكرتا بمغادرته لإضنائه العقل في عالم الآراء والأفكار.

كانت له جبهة عالية بارزة، وفم ينفرج عن شفتين دقيقتين، ولون يضرب إلى الصفرة، وعينان مريضتان من الانكباب على الدرس، وإدمان المطالعة، تختفيان تحت عوينات سوداء، وجسم نحيل، يرتدي الثوب الرسمي، صيفًا وشتاء، وشعور متدلية قد اشتعلت شيبًا، ولات حين مشيب، تحت قبعة تكسوه جلالًا وروعة، وإن شئت فسرًّا ورهبة.

وكان يشغل مسكنًا في الدور الرابع، يتقاضاه سبعمائة فرنك في العام. مؤلف من حجرة للنوم، وغرفة للمكتب، وأخرى للطعام، وغيرها للخادمة، ومطبخ، وكلها تشرف على أفق رحب. فكان الفيلسوف مشرفًا من نوافذه على جنبات حديقة النباتات.

وعهد بإدارة شؤون البيت إلى الآنسة "ترابينارد" على أن يدفع لها خمسة وأربعين فرنكًا أجرًا، أبلغها إلى ستين، فوق ما كان ينفحها من الهبات. وظلت الآنسة في خدمته، أمينة على مصالحه، وفية له، أوفى ما تكون ربات البيوت.

وكانت "ترابينارد" تحسن الظن بالفيلسوف، فما يروعها منه إلا إلحاده، وإحجامه عن الصلاة طوال خمسة عشر عامًا.

ولد "أدريان سكست" بمدينة "نانسي" عام ١٨٣٩. من رجل يتجر بالساعات. وكان الغلام متوقد الذكاء، على أن هزاله واعتصامه بالصمت، وبقاءه في أحضان العزلة، كل أولئك، كان يحمل أصحابه ولدَّاته، على ظنهم، أن بأخلاقه شذوذًا، وبنفسه جفوة.

ومضى الفتى في دراسته، متفوقًا على أقرانه، حتى إذا بلغ مرحلة الفلسفة بما يتفرع عنها من علم "المنطق" تجلت مواهبه وملكاته، ولاح لأستاذه استعداده لعلوم ما وراء الطبيعة، فأراده على أن يهيئ نفسه لامتحان مدرسة "النورمال"، فأبى، قائلًا، إنه إذا كان لا بد له من صناعة، فهو يؤثر صناعة أبيه. ولم يقتصد أبوه في تأنيبه إذ كان يداعب

الأمل، شأن كل صانع أو تاجر فرنسي، أن يغادر ابنه درج الجامعة، ليتربع في دست الوظيفة، وما أخذ أبواه عليه هفوة من الهفوات، فما رُؤِيَ يومًا يدخن، ولا شوهد مرة يغشى مقهى، أو يختلف إلى ملهى، أو يتأبط ذراع فتاة، فكان مدعاة فخرهما، ومعقد آمالهما. فلا عجب إذا هما نزلا على إرادته، وإن فاض بالحزن قلبهما.

وأبيا عليه الاشتغال بصناعة، وإن يكن ساءهما أن لم يلتحق بوظيفة. وكذلك قدر لأدريان سكست أن يقضي وقته بين ظهرانيهم، مكبًّا على الدرس والمطالعة. وأقبل، مدى عشر سنوات كاملات، على دراسة الفلسفة الإنجليزية والألمانية، في العلوم الطبيعية، والرياضيات، واستوعب آراء كارليل وستيوارت مل، وتين، ورينان، وريبو، وعلى الجملة، كل أساطين العلم، وشيوخ الحكمة، في العصر الحديث.

وفى عام ١٨٦٨، أخرج ابن صانع الساعات في مدينة "نانسي"، وقد بلغ التاسعة والعشرين من عمره، كتابًا يحمل هذا العنوان الغريب "روح الله". ثم بعث به إلى خمسة عشر شخصًا لا يزيدون؛ ولكن قدر له أن يحدث ضجة في جميع البيئات، ودويًّا هائلًا بين كافة الطبقات.

ووضع الكتاب على ضوء التحليل العلمي الذي قد يبلغ القسوة، وفي ظِل الإنكار الذي يكاد يشارف حدود التعصب. إنه لم تكن له شاعرية "تين"، ولا جفوة "ريبو"، ولكنه قد جمع بين بلاغة الأول، وعمق تفكير الثاني.

وأثار اهتمام الباحثين؛ لأنه اصطدم بأدق مسألة من مسائل علوم ما وراء الطبيعة.

وقد كان جائزًا أن يظل الكاتب مغمور الاسم، والكتاب خامل الذكر، لولا أن أتيح له، أن يتصدى للرد عليه، مطران مستفيض الشهرة، ويلمح إليه، أحد رجال الدين، في خطاب له بمجلس الشيوخ، تلميحًا يشف عن الحنق، ويتصدر لهدم نظرياته، كاتب كبير في إحدى المجلات، فكانت تلك العوامل مجتمعة، مثار اهتمام الشبان الذين كانت تهب عليهم، في ذلك الحين، عاصفة الإلحاد، وتطغى عليهم موجة التنكر، لما تواضعوا على تسميته بالآراء العتيقة، واصطلحوا على اعتباره نظمًا بالية. فكانت تحتشد، في الأفق، رعود الثورة وبروقها، منذرة بالانفجار القريب.

وكذلك قدر للمؤلف الجديد، الذي وضعه صاحبه في سكون الوحدة أن يصبح مثار الضجة في بيئة الآراء العصرية. وفي الحق، فقد مضت سنون لم يشهد الناس مثله، قوة حجة، وسعة اطلاع. على أنه، بينا أصبح اسم الكاتب في باريس، ملء الأفواه والأسماع، فإن نجاحه أثار الحزن في قلوب ذوي قرباه. فقد أتيح لوالدته أن تقرأ بضع رسائل في الصحف الكاثوليكية، نقدًا له، فأسلمها ذلك الاطلاع إلى اليأس، وتوجس أبوه خيفة من فقدان حرفائه[1] في بيئة الطبقة الأرستقراطية

(١) زبائنه.

بمدينة "نانسي"، وثارت ثائرة الناس على الفيلسوف، وانصبت الأحقاد على رأسه، وأوشك أن يهجر أسرته، لولا أن الغارة الألمانية، والنكبة القومية التي تلتها، قد صرفتا عنه أنظار أهله، وبني وطنه.

ومات أبواه في ربيع عام ١٨٧١. وفي صيف العام قضت عمته نحبها. فما أقبل الخريف في عام ١٨٧٢ حتى رتب شؤون ميراثه، وولى وجهه شطر باريس يزمع الإقامة فيها. وبلغ إيراده من نصيبه في تركة أبيه وعمته ثمانية آلاف فرنك في العام.

وصحَّت عزيمته على ألا يتزوج، ولا يغشى الأندية الخاصة، ولا يختلف إلى الاجتماعات العامة، ولا يطمح إلى ألقاب الشرف، ولا يرنو إلى الوظائف، ولا يجري وراء الشهرة، بل يكون شعاره في الحياة: التنقيب عن الحقيقة!

ولو أنا ألقينا نظرة عامة على حياته اليومية، لوجدنا فيه، العامل الذي لا تفتر همته، ولا يجد الوهن إلى عزيمته سبيلًا. فإذا أقبلت الساعة السادسة، صيفًا أو شتاء، ألفيته مكبًّا على مكتبه، وما تزود إلا بقدح من القهوة. فإذا كانت الساعة العاشرة، تناول طعام الفطور، على عجل. وما هي إلا لمحة حتى تضمه جوانح حديقة النباتات. فيلبث فيها حتى ينتصف النهار. فإذا بدا له أن يسرف في الرياضة، تهادى في الطريق إلى "نوتردام". وكان أحب شيء إلى قلبه، أن يطيل المكث أمام محال القردة، وحظيرة الفيل.

وما كان يروع الأطفال والخادمات، إلا أن يروا رجلًا يتضاحك من وحشية القردة تارة، ومن قحتها طورًا، وما كان هؤلاء وأولئك ليبلغوا مناط الفكرة التي تطوف بخاطر الفيلسوف، إذ كان يوازن بين المهزلة التي يمثل الناس فصولها، والهزلة التي تلعب القردة أدوارها. كما كان يفاضل بين الحماقة التي يغرق فيها الإنسان إلى أذنيه، والحكمة البالغة التي توافرت لذاك الحيوان الذي يزعم الزاعمون أنه كان سيد العالم.

فإذا انتصف النهار انقلب "مسيوسكست" إلى بيته فلبث يعمل حتى الساعة الرابعة. وفيما بين الرابعة والسادسة، كان يستقبل، ثلاث مرات في الأسبوع زائريه، وكلهم أو جلهم من الطلبة، والأساتذة الذين توافروا على مثل دراسته، والأجانب الذين تجتذبهم شهرة أصبحت تدوي في جوانب أوربا بأسرها.

وكان يبرح البيت، ثلاث مرات في الأسبوع، ليؤدي واجب الزيارة لبعض صحبه. فإذا جاءت الساعة السادسة تناول طعام العشاء ثم خرج للنزهة، حتى يبلغ محطة "أورليان". فإذا كانت الساعة الثامنة انحدر إلى بيته فأخذ في ترتيب رسائله، أو توفَّر على المطالعة. فإذا أقبلت الساعة العاشرة أطفأ الأنوار، وآوى مضجعه.

تلك الحياة التي تماثل حياة الراهب في الدير، والناسك في الصومعة، لم تكن تتخللها راحة أسبوعية إلا يوم الاثنين. فلقد آثره

الفيلسوف على يوم الأحد، إذ تتدفق جموع المتنزهين، وتطغى موجتهم على الريف. فإذا أقبل يوم الاثنين، رأيته يبكر، فيستقل قطار الصباح، فلا يغادر الضواحي إلا اذا أرخى الليل سدوله.

وكذلك مضى خمسة عشر عامًا، لم يبدل خلالها نظام حياته مرة واحدة، فما قبل دعوة إلى تناول الطعام في غير بيته، ولا اتخذ له مقعدًا في ملهى.

وما كان ليقرأ صحيفة قط، ملقيًا أمور الإعلان، على عاتق من يتولى طبع مؤلفاته. ولو أغرقه كاتب في طوفان من المديح، لما كلف نفسه مؤونة الشكر له على ما أسدى من حمد.

وما كان يحفل بالسياسة في كثير أو قليل، حتى لقد آثر ألا يتسلَّم تذكرة الانتخاب ويجمل بنا، كي نُتِمّ تصوير تلك الشخصية الفذة، أن نقول، إن الرجل قد فصم كل عروة تربطه بأهله. وكانت تلك القطيعة ترتكز على نظرية يدين بها الفيلسوف في أعماق نفسه. ولم لا، أليس هو القائل، في مقدمة كتابه الثاني "تشريح الإرادة": "ينبغي لكل من يود أن يعلم الحقيقة، ويجهر بها، في عالم العلوم النفسية، أن يتحلل، قدر المستطاع، من قيود الروابط الاجتماعية".

ولمثل هذا الباعث، كان ذاك الرجل الوديع الذي لم تجاوز ملاحظاته على خادمته طوال خمسة عشر عاما الثلاث عدًّا، يقبض يده عن الإحسان. فهو يؤمن بقول "سبينوزا": "الرحمة، في نظر الحكيم،

سيئة لا خير فيها". وشأن "أدريان سكست" في ذلك شأن "إميل لتريه" فهو خليق أن يلقب بالقديس اللا ديني، إذ له من القديس خلقه. وإن لم يكن له منه إيمانه ونسكه. فهو يجنح إلى اعتبار الدين، مرضًا من أمراض الإنسانية متوهمًا أنه يسلم المرء إلى التعلق بالخيال، ويوسع مسافة الخلف بينه وبين نواميس الطبيعة!

وما لبث أن طالع الناس بكتاب جديد في ثلاث مجلدات دعاه "نظرية العواطف". ولولا حرية الفكر والقلم، لضاقت صدور الناس بما احتواه من وصف جريء، ولجعلوه طعامًا للنار، ولزجوا بصاحبه في غياهب السجون.

فهو يرى، الهوة، بين الدين والعلم، بعيدة، حتى لا يستطاع تضييق ما بينهما من خلاف. ويذهب إلى أن تهذيب مشاعرنا، وصقل أخلاقنا، إنما يرجع إلى عوامل التطور.

ويخيل إلى أن الرجل ما كان يحفل بالعواطف، أو يأبه للمشاعر. نعم، لقد كان يحب أمه ولعل هذا الحب هو العاطفة الوحيدة التي دبَّت بين جوانحه.

ولقد كانت روحه مشربة بالعطف، متشبعة بالتسامح، حيال جميع الناس، عطفًا وتسامحًا مبعثهما نلك الغريزة التي توحي إليه الرحمة حتى بالجماد، فلا يزحزح الكرسي إلا في هوادة، ولا ينقل الأثاث إلا في رفق.

على أنه ما أحس يومًا بالحاجة إلى حنان يغمره، وعطف يحيط به، وحب يفيض عليه، وإخلاص يتجلى له، وعائلة تحوطه بالعناية والرعاية، أستغفر الله، بل ما أحس بالحاجة إلى الصداقة في أبسط مظاهرها.

وما توثقت الروابط بينه وبين نفر من العلماء، إلا ليحاج هذا في علوم الكمياء، أو ليجادل ذاك في الرياضيات العليا، أو ليناقش الآخر في أمراض المجموعة العصبية.

وما كان يعنيه من جماعة العلماء أن تكون لهم زوجات، أو يكون لهم أولاد، أو يكونوا منهمكين في البحث عن المناصب والوظائف، وإنما كان كل ما يعنيه منهم، جانب البحث العلمي.

ويا عجبًا لفيلسوف تلك صورة حياته، أن يشعر بالسعادة في أعماق نفسه!

تمثل أمامك ذلك الرجل، وصور لنفسك تلك الحياة، ثم تصور مبلغ الأثر الذي يتركه حادثان جاءا متعاقبين، في يوم واحد: فأما أولهما، فإعلان موجه إلى المسيو "أدريان سكست"، بالحضور إلى مكتب المسيو "فاليت" قاضي التحقيق لسؤاله عن الوقائع التي تدعو الضرورة لسماع ما يعلم عنها. وأما الثاني فبطاقة تحمل اسم "مدام جرسلو" تطلب فيها أن يتفضل فيأذن لها بمقابلته حوإلى الساعة الرابعة من ظهر الغد، "لتحدثه عن الجناية التي اتهم فيها ظلمًا، ابنها السيئ الطالع".

ولقد عرفت أن الفيلسوف ما كان يقرأ الصحف أبدًا، ولو فعل، لرآها، طوال خمسة عشر يومًا، تفيض أنهارها تحدثًا بقصة الشاب "جرسلو" التي طغت عليها مآسي الحياة فتعثرت بها ذيول النسيان.

وإذ أعوزته معلومات الصحف، فقد عز عليه أن يفهم مرمى دعوة الحضور أمام قاضي التحقيق، وفحوى بطاقة الوالدة التي تلتمس مقابلته.

على أن العلاقة بين دعوة الحضور، وكلمة الوالدة، جعلته يرجح الارتباط بين الواقعتين.

ثم استعرض الفيلسوف الماضي، فعرضت له ذكرى شاب اسمه "روبير جرسلو" عرفه خلال العام الماضي، في ظروف عادية، ولم يكن من شأن تلك الظروف أن تثير في نفسه فكرة قضية جنائية. ولذا ذهب ضياعًا كل ما قدر من فروض. فلبث يقلب النظر في الدعوة تارة، وفى البطاقة طورًا، وظل صريح القلق المؤلم، والاضطراب الممض، شأن أولئك الذين ألفوا الحياة النظامية فإذا نزلت بهم نازلة، أو ألم بهم ملم، أو فوجئوا بحادث غير مألوف، تصدَّعت نفوسهم، وتخاذلت قواهم وضاق أفق الحياة في عيونهم.

ومن هو "روبير جرسلو"؟ - إن المسيو سكست ليذكر فيما يذكر أنه قرأ ذلك الاسم، لأول مرة، منذ عامين، في ذيل بطاقة مصحوبة بنسخة خطية. عنوانها "بحث في الشخصية المزدوجة" يتوسل

صاحبها إلى الكاتب العظيم أن يلقي نظرة على باكورة تفكيره. وأضاف المؤلف إلى توقيعه: طالب فلسفة بمدرسة "كليرمون فيراند".

وكانت النسخة الخطية تتضمن ستين صفحة، تنم عن الذكاء المبكر النافذ إلى صميم الحقائق، فوق إلمامها التام بأحدث النظريات العصرية في علم النفس، وتكشفها عن قدرة في التحليل، اضطرت مسيو سكست إلى الرد عليها بخطاب مسهب مستفيض. فجاءته كلمة شكر معلنة بأن ذلك الشاب سوف يقدم إلى باريس لتأدية الامتحان الشفوي بمدرسة "النورمال" وبذلك يتاح له شرف المثول بين يدي الأستاذ.

وما لبث يومًا حتى رأى شابًّا في العشرين من عمره، له عينان سوداوان، يشع منهما نور الذكاء، فيفيض على وجه شاحب. تلك الصورة هي التي ارتسمت في ذهن الفيلسوف.

على أنه لم ينس الحديث الذي جرى بينه وبين "روبير جرسلو" فما راعه منه إلا وفرة اطلاعه، وقوة تدليله المنطقي. ولقد ملأ سمع الفيلسوف قوله: "كلا، يا سيدي، أنت لا تعلم منزلتك من نفوسنا، ولا الشعور الذي يتملكنا حين نستوعب مؤلفاتك. إنك أنت الذي تتقبل الحقيقة كاملة، فخليق بنا، نحن الشباب، أن نؤمن بآرائك. أرأيت إلى حديثك عن "الحب" في كتابك "نظرية العواطف"، كيف أصبح قبلة تفكيرنا، وأمسى كعبة آمالنا، وبات كتاب الفرض الذي نقدسه إلى أقصى ما يكون التقديس؟

انهم في المدرسة ليحولون بيننا وبين هذا الكتاب. ولكني أحرص عليه حرصي على قنية ثمينة. ولقد جاءني نفر من إخواني، حين غادروا المدرسة، لينقلوا فصوله..."

وإذا كان كل مؤلف يخفي في أعماق نفسه شيئًا من الكبرياء، ومهما يكن من إخلاص المسيو سكست، فليس من شك في أن تقديس طائفة من الطلبة لآرائه العلمية، ذلك التقديس الذي عبر عنه واحد منهم أصدق تعبير، قد داعب كبرياء الفيلسوف.

والتمس "روبير جرسلو" شرف الزيارة مرة أخرى، وإذا كان قد أعلمه بإخفاقه في امتحان مدرسة "النورمال" فإنه صارحه بما اعتزم من مشروعات. وسأله المسيو سكست، على غير مألوف عادته، عن حياته الخاصة. فعلم منه أنه ابن مهندس، مات ولم يخلف ثروة. فكفلته أمه، وقامت على تربيته، ببذل كثير من التضحيات. وقال روبير لأستاذه: "لن أرضى بعد اليوم أن أكون كلًّا على والدتى، فلقد صح عزمي على نيل "إجازة التعليم" هذا العام. فإذا ظفرت بها التمست منصبًا لتدريس الفلسفة في إحدى الجامعات، وسأعنى بوضع كتاب عن ازدواج الشخصية قد أطلعتك على جانب منه. ولشد ما أبرقت أسارير الشاب حين أخذ يرسم برنامج حياته المقبلة.

ولقد جاءت هاتان الزيارتان في شهر أغسطس من عام ١٨٨٥. فلما أقبل شهر فبراير من عام ١٨٨٧ كان المسيو سكست قد تلقى

خمسة أو ستة خطابات من تلميذه الشاب. أخبره في واحد منها أنه التحق بوظيفة مدرس في أسرة من أسر النبلاء انتجعت إلى جبال "أوفرني" لقضاء فصل الصيف على ضفاف بحيرة "إيدات"، أروع البحيرات جميعًا وأبدعها.

وعلى الرغم من انشغال المسيو سكست بإصلاح مقال "للمجلة الفلسفية"، جدَّ في البحث عن الرسائل التي وردت إليه من ذلك الشاب. وأرجع البصر فيها كرتين فما وجد في ثناياها إلا تأملات عقلية، وبضعة أسئلة عن الكتب الجديدة بالمطالعة. فما عسى أن تكون العلاقة بين هذا وبين القضية الجنائية التي تتحدث عنها تلك الوالدة؟

وما من شك في أن ذلك الفتى كان قد استرعى نظر الفيلسوف، وآية ذلك أن اللغزالكامن في ثنايا الدعوة الموجهة إليه للحضور إلى قصر العدالة، والسر المنطوي تحت كلمة الأم التي باتت فريسة لليأس، قد أسلماه للاضطراب، فتجافى جنبه عن المضجع، وقضى شطرًا من ليلته يقظًا يقلب وجوه الرأي.

وللمرة الأولى ثار الفيلسوف في وجه خادمته الآنسة "ترابينارد" من أجل إهمال هين. فلما أقبلت الساعة الواحدة بعد الظهر، مر بحارس البيت "الأب كاربونيه" ودلائل القلق بادية على وجهه، وهو الهادئ الساكن، فاسترعى ذلك نظر الحارس، كما استرعته ورقة الدعوة إلى الحضور، فتحدث إلى زوجته، وأفضى بالأمر إلى أهل الحي جميعًا.

قال الأب "كاربونيه" لزوجته وهو يحاورها: "إن الفضول لا يدفعني إلى تلمس الوقوف على شؤون الغير، ولكني أود، بجدع الأنف، أن أعلم ماذا تريد العدالة من المسكين مسيو سكست الذي يهبط في تلك الساعة فيضرب في الأرض على غير هدى، ويهيم على وجهه في الطرقات...".

وقالت فتاة لأمها، وهي جالسة إلى صندوق الحساب، في حانوت بائع الخبز: "يا عجبًا لمسيو سكست! كيف غير موعد رياضته؟! أكبر الظن أنه ذاهب للحضور في قضية ميراث".

وقال طالب لصاحبه وهو يحاوره: "ما أرى العدالة إلا مرهقة مسيو سكست من أمره عسرًا. تراه فتحسبه عفًّا لا يتعلق بذيله غبار. فإذا به غارق في الدنس إلى أذنيه، وكلهم من هذا الطراز البغيض".

وقالت زوجة أستاذ في "كوليج دي فرانس" لزوجها: "حقًّا لقد تضاعف جفاء خلقه، فلا يقرئنا السلام. ولقد ترامى إلى أنهم سيقدمونه للمحاكمة من أجل كتبه، وإنهم لفاعلون خيرًا".

وكذلك استرعى مسيو سكست أنظار أهل الحي جميعًا. ولو قدر له أن يدرك ذاك الفضول لعني به كما يعنى بمجلد يضم بين دفتيه خلاصة الفلسفة الجامعية، ولكنه جهله، فمضى في طريقه لا يلوي على شيء.

قضية جرسلو

كان الفيلسوف الشهير، المثل الأعلى للدقة في كل شيء. لذلك قدم إلى دار العدالة، قبل الموعد المضروب في ورقة الدعوة إلى الحضور بخمس دقائق. ولبث نصف ساعة يترقب قبل أن يدعوه قاضي التحقيق لسماع أقواله. ولم يكن بدار المحكمة غير خمسة أشخاص أو ستة. وآثر الحكيم أن يجلس إلى جانب تاجر وامرأته جيء بهما للتحقيق في حادث آخر، فما استطاعا أن يكتما اضطرابهما من جراء الاصطدام بالعدالة لأول مرة. على أن مظهره، بوجهه الأجرد وعينيه المحتجبتين خلف العوينات السوداء وردائه الرسمي، كل هذا قذف الروع إلى قلبيهما، فانتبذا مكانًا قصيًّا، وأخذا يتهامسان.

قال الرجل لامرأته: "أكبر الظن أنه من رجال الخفية". وقالت المرأة، وهي تلقي نظراتها على تلك الشخصية المحجبة بشتى الأستار، وذاك الوجه الجامد، وقد ملئت منه رعبًا: "لله! كم له من مظهر كاذب، وكم هو مخوف مرهوب!"

وبينا كان يمر ذلك المنظر الذي يثير الضحك، دون أن يحسه ذاك، الذي اتخذ دراسة القلب الإنساني صناعة له، لا يني عن التغلغل في صميمه، ولا يفتر عن تعرف ميوله ونزعاته، بل دون أن يشعر بمن إلى

جانبه، كان قاضي التحقيق يتحدث إلى صاحب له في غرفة مجاورة علقت بجدرانها صور نفر من كبار المجرمين، قد اتخذها مسيو "فاليت" غرفة للتجميل والزينة، وحجرة للتدخين، ومكانًا يفرج فيه عن صدره، بالثرثرة البريئة، بمنجاة من سمع كاتب التحقيق وبصره.

ولم يكن ذاك القاضي، قد ناهز الأربعين، وهو وضيء المحيا، متأنق في ملبسه، يتجمل بالخواتم في أصابعه، وعلى الجملة فقد كان من رجال المدرسة الحديثة. وتناول الورقة التي خط عليها الحكيم اسمه في صورة واضحة جميلة، ثم أطلع صديقه عليها، وكان رجلًا لا يعنى في حياته إلا بلذاذات الحياة، طالبًا إليه أن يمعن النظر فيها، ثم ينبئه عن شخصية صاحبها، ولم يكد يتأملها حتى صاح قائلًا: "أقدم إليك تهاني الحارة. فالحق إنها لفرصة ذهبية أن يتحدث المرء إلى ذلك الرجل. أرأيت إلى الفصل الذي عقده عن الحب في أي كتاب لا أدري؟ ما أراه إلا رجلًا عليمًا بأهواء النساء. لكن عم تسأله؟"

فقال القاضي: "سأطلب إليه أن يدلي بمعلوماته عن جناية "جرسلو". فلقد استقبل الشاب غير مرة، والدفاع طلبه، ليكون شاهد نفي في الدعوى، ولقد انتدبت لسؤاله".

فقال له صاحبه: "ما أشوقني إلى رؤيته!"

فأجاب القاضي: "إن كان هذا يسرك فما أيسره لك. فسأدعوه للدخول، وحينئذ يتاح لك أن تراه... وعلى أي حال فقد اتفقنا أن

نلتقي هذا المساء في الساعة الثامنة لدى "فيجون"، وأكبر الظن أن "كلاديس" ستكون هناك".

فقال له صاحبه: "اتفقنا... أو تعلم كلمتها الأخيرة إلى "كلاديس؟"

لقد كنا نلوم أمامها "برسي"، لأنها تخدع "جوستاف" فقالت: "لا مندوحة لها عن اتخاذ عاشقين فإنها تنفق كل عام ضعف ما يبذله عاشق واحد...".

فقال القاضي: "إني أعتقد أن تلك المرأة كفيلة بتلقين فلسفة الحب إلى "سكست"، ومن لف لفه في العالم بأسره".

وأرسل الصديقان الضحكات عالية. ثم أمر القاضي باستدعاء الفيلسوف، فصافح الصديق القاضي قائلًا له: " إلى اللقاء هذا المساء، لدى الساعة الثامنة مساء". ولكي يشبع فضوله نظر إلى وجه الكاتب الجليل، وقد سبقت له به معرفة إذ كان قد قرأ بعض مقتطفات من كتابه "نظرية العواطف" في مقالات الصحف. فما راعهما منه إلا أن شهدا فيه الرجل الحيي الخجول، وهما اللذان طالما أبرزه لهما خيالهما في صورة رجل صلب العواطف، متحجر القلب، لا ينفذ إليه شعاع رحمة، فتبادلا نظرة الدهش والذهول وانطبعت على شفتيهما الابتسامة.

وما لبث أن خرج الصديق. وأشار القاضي إلى الفيلسوف بالجلوس. ثم بدت على وجه قاضي التحقيق أمارات الجد والخطورة،

وحاول جهده أن ينساب في ضمير الماثل أمامه. وأيقن الفيلسوف أن تطيره قد صدقه، إذ لمح الملف الضخم الذي تناوله مسيو "فاليت " مكتوبًا عليه بالخط العريض "قضية جرسلو".

وساد السكون جو الغرفة حتى لا يسمع إلا حفيف الأوراق، وما لقلم كاتب التحقيق من صرير. وتأهب الكاتب لتدوين المحضر في غير مبالاة شأن هؤلاء الكتاب الذين ألفوا ان يكونوا آلات صماء حيال تسجيل أروع المآسي المطروحة أمام محاكم الجنايات. لا تمتاز لديهم قضية من قضية، أو جناية من أخرى، كما لا يمتاز لدى اللَّاحِد ميت من ميت، أو لدى خادم المستشفى مريض من مريض.

وقال القاضي: "سأوفر عليك يا سيدي الأسئلة المألوفة.. فمن الأسماء ما لا ينبغي جهلها، ومن الرجال من لا يليق تجاهلهم...". فلم يحنِ الفيلسوف رأسه ردًّا على هذه التحية، فقال القاضي في سره: "ليس ذلك مألوف في التقاليد الاجتماعية، ولا سائغًا في الأوضاع الادبية، فأغلب ظني أن الرجل من جماعة الأدباء الذين يرون حقًّا عليهم أن يغمرونا باحتقارهم". ثم جهر قائلًا: "والآن أبلغ الواقعة المبررة للدعوة التي رأيت لزامًا عليَّ أن أوجهها إليك... أنت تعلم الجناية المتهم فيها الشاب روبير جرسلو".

فاعتدل الفيلسوف في جلسته، بعد أن كان قد أخذ الأهبة للإصغاء لأقوال القاضي، واتكأ بذراعه على الكرسي، وأسند ذقنه

إلى يده، ووضع سبابته على خده، شأنه حين يخلو إلى نفسه، فيغرق في طوفان التفكير، ثم قاطع القاضي قائلًا: "عفوًا يا سيدي، فليس لدي معلومات عنها إطلاقًا".

فأجاب القاضي: "لقد ذكرت كافة الصحف وقائع تلك الجريمة بدقة لم نعهدها في طائفة سادتنا الصحفيين". ثم جاش بنفسه: "إنه يتحصن بالرياء، ليتقن تمثيل دوره. فيا للحماقة!"

فقال الفيلسوف: "معذرة يا سيدي فإني لا أقرأ صحيفة ما".

فتنفس القاضي الصعداء وهو في مزيج من التهكم والذهول، وقال في لهجة تشف عن الحنق: "حسن يا سيدي، سألخص لك الاتهام في بضع كلمات، وأنا شديد الأسف على أنك غير واقف على مجريات حادث يمس مساسًا خطيرًا مسؤوليتك الأدبية، إن لم ينل مسؤوليتك القانونية...". وهنا لم يسع الفيلسوف إلا أن هز رأسه إيذانا بالقلق الذي ساوره، والاضطراب الذي ملك عليه مشاعره، فتهلل وجه القاضي، وقال: "إنك تعلم، على أي حال، يا سيدي، من هو روبير جرسلو، وما هو المركز الذي كان يشغله لدى "الماركيز جوسات راندون". فإن لدي بملف الدعوى صورًا لخطابات عدة بعثت بها إليه في قصر جوسات، وهي ناطقة بأنك كنت القائد العقلي، والزعيم الروحي، للمتهم". فحرك الفيلسوف رأسه كرة أخرى. "وإنى أسائلك أن تتفضل فتكاشفي عما إذا كان ذلك الشاب قد خاطبك بشأن حياة

تلك الاسرة، وفي أي أسلوب... ولعليّ لا أحيطك علمًا بأمر أنت تجهله. إذا ما قلت لك إنها كانت تتألف من أب، وأم، وابن يعمل ضابطًا في الجيش، بالفرقة التي تعسكر الآن في ثكنات لونيفيل، وابن ثان كان تلميذًا لجرسلو، وفتاة عمرها تسعة عشر ربيعا اسمها الآنسة شارلوت. وكانت تلك الفتاة خطيبة للبارون دي بلان وهو ضابط بنفس الفرقة مع أخيها. وكان لا بد من إرجاء الزواج، بضعة أشهر، لأسباب عائلية، لا علاقة لها بالدعوى على الإطلاق. وأخيرًا حدد له نهائيًّا اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر الماضي ففي صباح الأسبوع السابق لقدوم خطيبها مع الكونت أندريه، شقيق الآنسة شارلوت، دخلت عليها خادمتها في الساعة المعتادة، فألفتها، فوق مضجعها، جثة هامدة..".

وتوقف القاضي، ولبث يتصفح ملف التحقيق، وهو يرنو بعينه إلى الشاهد، فيبصر بالذهول وقد ارتسم على وجهه بصورة لا تدع مجالًا للشك في إخلاصه، فاسترعى ذلك دهشة القاضي وقال في نفسه: "إن الرجل لا يعلم من الأمر شيئًا، فيا له من أمر مدهش عجيب..". وظل يتصفح وجه ذلك الرجل الشهير بينا يقلب صحائف الدعوى غير مبالٍ. على أنه كانت تعوزه بعض البيانات عن تلك الشخصية ليحيط بها خبرًا، فقد كان صاحبها في ميدان الأفكار قويًّا لا يبارى، وفي عالم الآراء قادرًا لا يجارى، وفي دنيا النظريات المجردة عالمًا لا يشق له غبار، ولا يصطلى له بنار، فإذا جاء إلى ميدان الوقائع، ألفيته

الغر الساذج، والحيي الخجول، لا بل الرجل الذي يصبح ضحكة الضاحكين، ويمسي سخرية الساخرين.

ومضى القاضي في تلخيصه، ونفسية فيلسوفنا لديه من الطلاسم والمعميات، وعقليته من الأحاجي والألغاز، فقال: "وعلى الرغم من أن الطبيب الذي استدعي على عجل، لم يكن إلا طبيبًا متواضعًا من اطباء الريف، فإنه لم يتردد لحظة واحدة في الجهر بأن مظهر الجثة صريح في الدلالة على أن الموت غير طبيعي. فقد كان الوجه أغبر، والأسنان مصطكة، والعينان بارزتين، والجسم متقوسًا، تقوسًا وصل بين الرأس والقدمين، وعلى الجملة فقد كانت الدلائل كلها ناطقة بأن سبب الموت هو التسمم بالستكرنين. ووجدت زجاجة موضوعة على المائدة بها بقايا جرعة دواء كان لا بد للآنسة شارلوت من تناولها غداة يوم موتها في المساء، أو أثناء الليل، على مألوف عادتها، لتدفع عنها الأرق، فقد مضى عليها حوالي عام وهي تعاني آلام مرض عصبي. وما لبث الطبيب أن حلل القطرات التي بالزجاجة حتى وجد بها آثار "الجوز المقيء". ولا أخالك إلا عالمًا بأن ذلك هو الشكل الذي يأخذه ذلك السم الناقع القتال في الطب الحديث. وعثر البستاني على زجاجة صغيرة ليست عليها كتابة ما بها بضع قطرات من سائل لونه أسود، ملقاة تحت نوافذ الغرفة. ولقد ألقيت الزجاجة عمدًا لتتحطم، ولكن صادفت أرضا رخوة فظلت سليمة، وتبين أن القطرات التي بها هي بقايا "الجوز المقيء"، فلم يبق أثر للشك في أن

الآنسة شارلوت ماتت مسمومة. وجاء التشريح يؤيد الدعوى. وهنا كان التساؤل: هل نحن حيال واقعة انتحار، أم حادث قتل؟ وكيف السبيل إلى فكرة الانتحار وبواعثه منعدمة؟ وفي الحق، فما الذي كان يبعث شابة على أن تقتل نفسها، وقد أوشكت أن تزف إلى رجل رائع ارتضته زوجًا لها؟ ذلك فرض لا يسيغه العقل، فينبغي إذن استبعاده من دائرة الفروض. وكيف تجهز على نفسها دون أن تخط كلمة إيضاح تلقي شيئًا من الضوء على هذه المأساة، وبغير أن تترك كتابًا يحمل عبارات الوداع إلى أهلها؟! ومن ناحية أخرى كيف حصلت على السم؟ ولا جدال في أن هذا البحث قد أفضى بالعدالة إلى الاتهام الذي يشغلنا اليوم، فلما سئل صيدلي القرية، قرر أن مدرس القصر ابتاع منه "الجوز المقيء" لستة أسابيع خلت، تحت ستار الدعوى بأنه في حاجة إليه لعلاج مرض المعدة. وكان هذا المدرس قد سافر إلى "كليرمونت" بدعوى أنه ذاهب ليرى أمه المريضة، في ذات اليوم الذي اكتشفت فيه الجثة، زاعمًا أنه استدعي ببرقية. ولقد تضافرت الأدلة، على أن البرقية لا وجود لها إلا في خياله، وأن خادمًا رآه في ليلة ارتكاب الجريمة خارجًا من حجرة الآنسة شارلوت، وأخيرًا فقد نهض الدليل على أن زجاجة السم التي اشتريت من الصيدلي، ووجدت لدى الشاب، قد أفرغ نصفها ثم ملئت ماء، ليتم نقصها، درءًا للشبهات. وشهد الشهود بأن روبير جرسلو كان دائم الاتصال بالفتاة رغم أهلها. بل لقد اكتشفت كتاب بعث به إليها منذ أحد عشر

شهرًا، وجاء الكتاب مثبتًا أول خطاه في سبيل مطارحتها الهوى. وقرر الخدم، وعززت شهادتهم بأقوال تلميذ المدرس نفسه، أن العلاقات بين الآنسة شارلوت وبين الفتى، وكانت متراخية في الثمانية أيام الأخيرة إلى أقصى حدود التراخي، بعد أن كانت ودية إلى أبعد غايات المودة، وبلغ من إعراضها عنه أن أمسكت عن رد التحية. فاستنتجوا من تلك الدلائل مجتمعة الافتراض التالي: أن الفتاة قد شغفت روبير جرسلو حبًّا، فلما هام بحبها وعز عليه طلابها، تهدمت قصور آماله، فاختمرت في رأسه جريمة الإجهاز عليها، فقتلها سمًّا، ليحول دون زواجها بآخر. وأيد هذا الافتراض ـ أكاذيب الفتى حين سؤاله. فقد أنكر بتاتًا أنه كتب إلى الآنسة شارلوت. فقذفوا في وجهه بكتابه إليها. ووجدوا بالموقد الذي بغرفة المجني عليها، بقايا أوراق محترقة أضرمت النيران فيها ليلة الوفاة، ومن بينها نصف غلاف خطاب بخط المتهم. وأنكر أنه توجه في تلك الليلة إلى غرفة الآنسة شارلوت، فواجهوه بالخادم الذي رآه خارجًا منها، فشهد الخادم برؤيته، وعزز شهادته بالاعتراف بأنه هو أيضًا كان يغشى غرفة تعلق فؤاده بحبها. هذا كله إلى أن جرسلو لم يستطع أن يبرر ابتياعه الجوز المقيء عابثًا بما للصيدلي به من ثقة. ولقد قام الدليل على أنه لم يشك من قبل ألما بالمعدة. ثم إنه لم يعلل تلك البرقية الزائفة التي انتحل وصولها إليه بعلة مقبولة، ولم يوضح بواعث رحيله على جناح السرعة، وتوجت هذه الأدلة بدليل آخر لا ترقى الشكوك إليه، هو اضطرابه وتخاذله

لدى اكتشاف مادة السم. وفوق ذلك كله فليس هناك باعث على ارتكاب الجريمة غير اضطرام جذوة الانتقام في صدر عاشق خابت آماله، فقد وجدت حلي المجني عليها تامة، ونقودها كاملة، ولم توجد بالجثة آثار مقاومة إطلاقًا، فارتسمت للجناية الصورة التالية: دخل جرسلو غرفة الآنسة شارلوت علمًا منه بأنها تنام عادة لغاية الساعة الثانية، ثم تستيقظ لتتناول جرعة الدواء، فمزج هذه الجرعة بكمية من "الجوز المقيء" تكفي للقضاء عليها في لحظة، فما قرت بجوفها حتى قضت نحبها دون أن تقوى على استدعاء أحد لإسعافها، ثم لاذ بالفرار قبل اكتشاف الجثة خشية افتضاح أمره. فأما الزجاجة التي وجدت بالحديقة فارغة، فلا بد أن يكون ألقى بها من نافذة غرفته المشرفة على غرفة الآنسة شارلوت. وأما الزجاجة الأخرى، فقد ملأها ماء، تضليلًا للمحققين وتغريرًا كما يفعل الناشئون في الإجرام. وعلى الجملة، فإن جرسلو معتقل اليوم في سجن "ريوم" وسيقدم إلى محكمة الجنايات في دور شهر فبراير، أو في أوائل شهر مارس، لاتهامه بأنه قتل الآنسة شارلوت بالسم وضاعف مسلكه منذ اعتقاله الأدلة الساحقة القائمة عليه. فلقد تحصن بالصمت المطلق رغم افتضاح أكاذيبه، وأبى أن يجيب على ما وجِّه إليه من أسئلة، زعمًا منه أنه بريء، ليس عليه أن يدافع عن نفسه. ورفض رفضًا باتًّا إنابة محامٍ يذود عنه، واستسلم للحزن العميق استسلامًا لا يدع مجالًا للشك في أنه أصبح صريع وخزات الضمير، وأقبل على المطالعة والكتابة

في مسائل فلسفية بحتة، علَّه يمحو الأثر السيئ الذي تركه حزنه في النفوس، وليدلل على أنه حر العقل طليق الفكر لم تلوث يده بجريمة، ولم يقدم على إزهاق روح بريئة، وتلك قدرة مسرحية غريبة من شاب في مستهل العقد الثالث من حياته. وإن طبيعة ما يشغل ذهن المتهم، بعد هذا الشرح الوافي تفضي بي، يا سيدي، إلى ما كان الباعث على تمسك والدة ذاك الشاب بسماع شهادتك في قضيته. وإذا كان من الطبيعي أن تثور تلك الأم ضد البديهيات، وإذا كان الحزن يكاد يجهز عليها، فإنها لم تستطع أن تغالب إصرار ولدها على التزام الصمت. ولقد كانت مؤلفاتك ومؤلفات بعض علماء النفس الإنجليز هي كل ما طلب، وكان لمؤلفاتك في مكتبته الحظ الأكبر من عناية بها، وانهماك في مطالعتها، وقتلها بحثًا وتمحيصًا، وليس أدل على ذلك مما خطه بها من الشروح والتعليقات التي كانت تربو في بعض الأحيان على الأصول والمتون... ومن ذلك تستطيع أن تحكم...".

وبينا كان المسيو فاليت يتحدث، قدم إلى الفيلسوف نسخة من كتاب "روح الله" ففتحه اعتباطًا، فما راعه إلا أن رأى قبالة كل صحيفة مطبوعة، صحيفة مكتوبة بخط المتهم تفيض شرحًا وتعليقًا، وما هاله إلا أن لحظ التشابه التام بين خطه وخط المتهم، وإن بدا الأخير أكثر اضطرابا. فأثار هذا التشابه دهشة الفيلسوف، وبعث في نفسه شعور الألم، فطوى الكتاب ورده إلى القاضي، قائلًا: لا أكتمك يا سيدي أني مذهول مما أفضيت به إليّ وإني لا أخفي عنك أني لا أستطيع إدراك

العلاقة بين هذه الجناية وبين كتبي أو شخصي، كما لا أستطيع فهم طبيعة الشهادة التي يمكن أن يطلب مني أداؤها".

فقال القاضي: "ذلك أمر هين. فمهما تكن الأدلة القائمة على اتهام روبير جرسلو، فإنها لا تقوم إلا على فروض، والقرائن على ارتكابه الجريمة قوية، لكن ليس هناك يقين ثابت. من ذلك ترى يا سيدي، إذا شئت أن استخدم لغة العلم الذي تبرز فيه، أن المسألة النفسية هي التي ستسود القضية بأسرها. نعم، سيكون محل التساؤل: ما هي الأفكار التي كانت تتسلط على ذهن ذلك الشاب، وتستولي على مشاعره؟ وماذا كان خلقه؟ فلو كان معنيًّا بدراسة المسائل المجردة، فإن شبهات اتهامه تتضاءل وتنكمش...". وهنا بدت على القاضي دلائل عدم المبالاة فلم يفطن الفيلسوف إلى الحبالة التي نصبت له. ولم يذكر مسيو فاليت أن إحدى الحجج التي يستند إليها الاتهام، تتلخص في أن روبير جرسلو قد أفسدته مطالعاته. وكانت الجهود منصبة على حمل مسيو سكست على تحديد ماهية المبادئ التي كان الشاب متشبعًا بها.

فأجاب الحكيم: "سل يا سيدي".

فقال القاضي: "أتريد أن نبدأ بالبداية؟ في أي ظروف، وفي أي تاريخ تعرفت بروبير جرسلو؟"

قال الفيلسوف: "كان ذلك منذ عامين، ولمناسبة بحث مجرد عن الشخصية الإنسانية جاء ليقدمه بنفسه إلي".

ـ "وهل رأيته مرارًا؟"

ـ "رأيته مرتين لا غير".

ـ "وما الأثر الذي تركه في نفسك؟"

ـ "هو أنه شاب لديه استعداد بديع للمباحث الفلسفية...". كذلك أجاب الفيلسوف وهو يزن كل كلمة من كلماته. فاستشف القاضي من ثنايا هذه اللهجة البريئة المخلصة، ضمير رجل يود أن يواجه الحقيقة ويفضي بها كاملة. ثم أتبع ذلك بقوله: (نعم، لقد كان استعداد الفتى للفلسفة بديعًا إلى حد أني جزعت لهذا النضوج المبكر".

ـ "ألم يحدثك عن حياته الخاصة؟"

ـ "حدثني عنها قليلًا جدًّا. وجملة ما أفضى به إلى هو أنه كان يعيش مع والدته، وأنه أزمع أن يكون أستاذًا، في الوقت الذي يتوفر فيه على وضع بعض المؤلفات".

ـ فقال القاضي: "حقًّا لقد كان ذلك بعض برنامج حياة المتهم الذي وجده المحققون بين بقايا أوراقه التي عمد إلى إتلافها فيما بين سؤاله الأول والقبض عليه، فجاء عمله دليلًا على اتهامه. فهل لك أن تلقي شيئًا من الضوء، على عبارة وردت في ذلك البرنامج، تعتبر غامضة في نظر أولئك الذين لا يؤمنون بالفلسفة الحديثة، فلم يدركوا كنهها، ولم يقفوا على حقيقة مراميها؟ وتلك هي.. ثم يتناول ورقة من

بين الأوراق ويتلوها: "مضاعفة التجارب النفسية قدر المستطاع"... "فماذا تظن في قصد روبير جرسلو بتلك العبارة؟"

فقال مسيو سكست بعد صمت: "إني لفي أشد الحيرة مما أجيبك به يا سيدي". فاقتنع القاضي بأن من العبث أن يمكر برجل ساذج كهذا ما حبسه عن المبادرة بالجواب إلا رغبته في التنقيب عن عبارة يجلو بها فكرته. ثم قال الفيلسوف: "إني أعلم المعنى الذي ينطوي تحت تلك العبارة، وأكبر ظني أن هذا الشاب يذهب مذهبي في التفكير، لأنه كان على إلمام تام بالمباحث النفسية. فمن الواضح، أن البرهان العكسي لقانون من قوانين العلوم القائمة على التجربة المؤسسة على المشاهدة كالكمياء والطبيعة، يتطلب التطبيق العملي لذلك البرهان. فإذا كان من الممكن تحليل الماء إلى عنصريه، فمن الواجب تكون الماء لدى وجود هذين العنصرين. وتلك هي الطريقة التجريبية في العلوم الحديثة. فيتاح إيجاد ظاهرة من الظواهر عند توافر شروطها... فهل يمكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الخلقية؟ أما من جهتي فأنا أعتقد أن ذلك ممكن، وأن ما يسمونه التربية ليس إلا تجربة نفسية منظمة إلى حد ما إذ هي تتلخص فيما يلي: إذا أعطيت ظاهرة تدعى تارة، الفضيلة، وطورًا الصبر، ومرة التبصر، وأخرى الإخلاص. أو كفاية عقلية، أو لغة ميتة أو حية، أو الخط أو الحساب ـ فيتعين عليك إيجاد الشروط التي تنتج فيهما تلك الظاهرة بسهولة.. على أن هذا الميدان محدود، لأني إذا شئت، مع افتراض أن الشروط الواجب

توافرها لتوليد عاطفة قد عرفت، أن أجد تلك العاطفة في شخص بالذات، فإني أصطدم بصعوبات لا يمكن التغلب عليها بحال، سواء أكانت تلك الصعوبات مصدرها القانون، أم كان مبعثها الأخلاق. وقد يحين الوقت الذي تصبح فيه تلك التجارب ممكنة مستطاعة. والرأي عندي، أن نقتنع الآن نحن جماعة علماء النفس بالتجارب التي تجريها الطبيعة، أو التي تأتي بمحض الصدفة. فالمذكرات، والمباحث الأدبية والفنية، والإحصاءات، وملفات القضايا الجنائية، وملاحظات الطب الشرعي، كلها تمدنا بوقائع تنم على ضوئها بحوثنا النفسية. ولقد بحث معي روبير جرسلو عن تلك الضالة التي ينشدها علم النفس. وإني لأذكر أنه كان يأسف أن المحكوم عليهم بالإعدام لا يحاطون بشروط خاصة تسمح بإجراء تجارب نفسية فيهم. على أن ذلك الرأي كان قائمًا على الافتراض المحض، وصادرًا عن عقل غض لا يستطيع بعد أن يقدر أنه لا بد من وقت طويل لإمكان دراسة حالة نفسية. وعندي إن الأطفال هم الذين يصلحون لإجراء التجارب. ولكن كيف السبيل إلى إفهام الناس أنه قد يكون من مصلحة العلم أن نغرس فيهم باطراد بعض النقائص، أو نبث فيهم بعض الرذائل؟"

فصاح القاضي صيحة الدهش والذهول حين ملأ الفيلسوف فمه بتلك الكلمة الكبيرة، وألقاها في دم بارد، وضمير جامد: "بعض الرذائل؟"

فأجاب الفيلسوف وقد ابتسم لدهشة القاضي: "إني أتكلم كعالم من علماء النفس. وأرى أن هذا هو الباعث على وقوف علمنا في تقدمه عند حد محدود. ولقد أعطاني عجبك برهانًا إن صح أن الأمر بحاجة إلى برهان. فلا يستطيع المجتمع الإنساني أن يتجاوز عن نظرية الخير والشر، تلك النظرية التي لا تعدو أن تكون في نظرنا نحن علماء النفس، طائفة من الاصطلاحات التي تواضع الناس عليها، فتارة تكون صالحة، وطورًا تكون صبيانية".

فقال مسيو فاليت: "على أنك تسلم بأن هناك أفعالًا طيبة وأخرى سيئة". ثم أراد القاضي أَن ينتزع من ذلك الجدول العام، دليلًا يضيفه إلى محضر تحقيقه فقال: "أنت تعتبر تسميم الآنسة شارلوت جريمة...".

فأجاب مسيو سكست: "لا ريب في ذلك من وجهة النظر الاجتماعية. ولكن بالنسبة للفيلسوف ليس هناك جريمة أو فضيلة، وما أعمالنا إلا وقائع من نظام خاص، خاضعة لقوانين بالذات". وهنا تجلى كبرياء الفيلسوف فقال: "على أنك يا سيدي تجد إيضاحًا أجرأ على الاعتقاد بأنه واف، لتلك النظريات في كتابي تشريح الإرادة".

فسأل القاضي: "هل خضت في تلك المسائل مع روبير جرسلو؟ وهل تعتقد أنه كان يشاطرك آراءك؟"

فأجاب الفيلسوف: "في الغالب".

فقال القاضي وقد أزاح الستار عن أدوات هجومه: "أفلا تعلم يا سيدي أنك تبرر زعم المركيز دي جوسات: أن المذاهب المادية الحديثة هي التي طاحت بالشعور الخلقي في نفس ذلك الشاب، وجعلته خليقًا بارتكاب جريمة القتل؟"

فأجاب مسيو سكست: "أنا لا أدري ما هي المادة ولهذا فلست ماديًّا. فأما إلقاء التبعة على مذهب من المذاهب لأن ذهنًا غير متزن يفسره تفسيرًا خاطئًا فذلك كتحميل مكتشف مادة الديناميت وزر الجرائم التي تستخدم في ارتكابها".

وسأل الفيلسوف القاضي: "أتعتقد أني سأضطر إلى الذهاب إلى "ريوم" لأداء الشهادة؟"

فقال القاضي: "لا أظن هذا يا سيدي، فقد أرى أن علاقاتك بالمتهم كانت سطحية أكثر مما اعتقدت أمه، إن كان حقًّا أنها لم تزد عن هاتين الزيارتين، والرسائل الفلسفية البحتة التي تبادلتماها. على أني أعود فاسألك: أكاشفك بشيء عن حياته لدى أسرة جوسات؟"

ـ "لم يكاشفني بشيء إطلاقًا. وفوق ذلك فقد كف عن مراسلتي منذ التحاقه بتلك العائلة".

ـ "أو لم تلحظ في رسائله الأخيرة، بوادر طموح جديد، أو آثار قلق، أو مظاهر فضول لا تدرك ما هي؟"

ـ فأجاب الفيلسوف "لم ألحظ شيئًا شبيهًا بذلك".

فصمت القاضي برهة ثم قال وهو يمعن النظر إلى ذاك الشاهد الغريب: "لا أود أن أحتجزك أكثر مما احتجزتك. فوقتك ثمين، وأرجو أن تسمح لي بأن ألخص لكاتب التحقيق الأجوبة التي أدليت بها إليَّ. إذ هو لم يألف التحقيقات الخاصة بمثل تلك الآراء الدقيقة... ثم توقع أنت بإمضائك...".

وبينا كان القاضي يملي على كاتب التحقيق من أقوال الشاهد ما قد ينير السبيل أمام العدالة، كان ذلك الذي صعقته إماطة اللثام عن جريمة روبير جرسلو، وضاعف من اضطرابه حديثه مع قاضي التحقيق، لا يبدي ملاحظة أو يثير اعتراضًا، بل ما كان يدرك شيئًا لأن الظروف المروعة التي أحاطت به قد قضت على ملكة تفكيره فوقع بإمضائه دون أن ينظر بعد أن تلا عليه مسيو فاليت شهادته. وقبل أن يبرح غرفة التحقيق قال: "وإذن فيمكن أن أكون على يقين بأني لن أكره على الذهاب إلى هناك؟"

فقال القاضي وهو يشيعه إلى الباب. "أرجو ألا تضطر للذهاب. وفي كل حال فلن يستغرق ذلك إلا يومًا أو يومين". وما لبث مسيو سكست أن غادر غرفة التحقيق حتى التفت القاضي إلى الكاتب فقال: "ذلك مجنون أولى له أن يعتقل في إحدى المصحات العقلية. فبمثل تلك الآراء التي يفيض بها هذا الفوضوي العقلي. تضل عقول

النشء... ويا عجبًا له كيف يتبدى في مظاهر حسن النية. أو تدري أنه قد يطوح برأس تلميذه بأفكاره الغريبة الشاذة؟ وما عليه في هذا وكل ما يعنيه هو أن يعلم أيذهب إلى "ريوم" أم لا يذهب. يا له من مجنون!" ثم ضحك القاضي والكاتب وقال أولهما في نفسه: " ما كنت أحسب أدريان سكست، الذي ملأ ذكره الأفواه والأسماع، على تلك الصورة"

بعض الألم

وما لبث مسيو سكست أن غادر غرفة التحقيق حتى تبين الوقت ثم قال في نفسه: "لقد وافت الساعة الثانية والربع. ولن أبلغ البيت حتى تكون الثالثة. وستحضر مدام جرسلو لدى الرابعة. فلا سبيل إلى العمل. فما أشد ذلك غضاضة على نفسي، وما أعظمه مضاضة لقلبي!" فآثر اختيار تلك الساعة فترة لرياضته.

وظل وهو يتريض يناجي نفسه: "لعمري ماذا صنعت حتى يقتحم اسمي في تلك الجناية، ويزج بي في مثارها؟ وما عسى أن تكون جدوى شهادتي في التحقيق؟" وما كان يداخل الرجل شك في أن نظرياته عن الجريمة، وعن المسؤولية الجنائية، قد تصبح بين يدي المحامي البارع وفي فم المدافع المُدره، سلاحًا ماضيًا ضد جرسلو. ثم استرسل في تلك المناجاة: "أفمن أجل تلك الأسئلة الغثة التافهة التي أمطرني قاضي التحقيق بوابل منها، يزعجون خلوتي ويقطعون عليّ سبيل العمل؟! حقًّا إنهم لقوم لا يحيطون بشيء من حياة الرجل العامل. وكلي رجاء ألا أكره على الذهاب إلى "ريوم" لينهال على رأسي سيل من تلكم الأسئلة التي أراني قاضي التحقيق بعض ألوانها، وتمثل لناظره شبح الرحيل إلى مدينة ريوم، والاختلاف إلى محكمة

الجنايات، وشهود المحاكمة الجنائية، ففاضت نفسه بالألم. فقد عرفته رجلًا يسكن إلى الوحدة يؤثرها على ضجيج العالم وعجيجه، ويلقي بنفسه في أحضان العزلة فلا يقطع عليه سبيل التفكير صخب الحياة وجلبتها. فهو رجل فكر لا رجل عمل. لا يحب أن يزعج خلوته شيء في الوجود. لذلك هاله أن يتمثل حقيبته قد فتحت، فألقيت فيها ثيابه، إلى جانبها الأوراق الضرورية لبحوثه، وركوبه العربة، وبلوغه المحطة المملوءة ضجة، وجيرانه الذين يضيقون أنفاسه طوال السفر، وطلوعه على بلد لم يره من قبل، وإشرافه على وجوه لم يتصفحها فلم يألفها، وتبرمه بحجرة المنزل وهي خلو من عناية الآنسة "تربينار" ورعايتها، تلك التي أصبحت منه بمنزلة الوحيد من أمه. فيا عجبًا لمفكر مستقل طليق، يستقبل الموت غير وجل ولا هياب في سبيل عقيدته التي يدين بها، كيف يرتاع ويفزع خشية الشخوص إلى "ريوم"! وما راعه إلا أن يتمثل نفسه في قاعة الجنايات أمام رئيس ينهال عليه بالأسئلة فيضطر للإجابة عليها، بمرأى ومسمع من النظارة الذين أرهفوا للسمع آذانهم، وهو الحيي الخجول. وما أن ثارت في نفسه تلك الخواطر حتى أهاب بنفسه: "لن أستقبل بعد اليوم شابًّا. أجل، سأوصد بابي في وجوههم جميعًا... لكن لا أستبق الحوادث، فلربما أعفوني من تلك السخرة، وكفوني شر ذاك العناء...".

ومضى الفيلسوف يناجي نفسه: "وكيف السبيل إلى الخلاص، وفي الأمر مساس بمؤلفاتي وآرائي؟ ما أعظم الحقد الذي تنطوي

عليه صدور الجُهلاء لكافة المناهج التي لا يستطيعون فهمها! حقًّا أن الإنسان عدو طبيعي لكل ما جهل! هذا شاب تتأجج نيران الغيرة في صدره، فيجهز على الفتاة التي شغفته حبًّا ليحول بينها وبين الزواج بآخر. وكان هذا الشاب يراسل الفيلسوف الذي توفَّر على دراسة كتبه. فالفيلسوف هو المجرم. وهو الذي يتحمل تبعة الجريمة. ومن عجب أن أصبح ماديًّا وأنا الذي دللت على عدم وجود المادة... ثم تراءت له صورة "مريوس ديمولان" الأستاذ الشاب في "كوليج دي فرانس" الذي يمقته أشد المقت، فوردت امام خاطر الفيلسوف بعض العبارات المحببة إلى قلب ذلك الأستاذ الملتهب حرارة في الدفاع عن المذهب الروحي، المتأجج نارًا في الحملة على خصومه كقوله: "المذاهب الضارة... السم العقلي الزعاف الذي يقطر من أقلام، أكبر الظن أنها لا تعي... العرض الشائن لعلم النفس عرضًا لا يراد به إلا الطنطنة والإعلان عن النفس، ولا يقصد منه إلا الإفساد". فقال أدريان سكست في ألم، وهو يناجي نفسه: "نعم، إذا لم يكشف مريوس ديمولان عن محض الصدفة التي جعلت من أحد تلاميذي قاتلًا، فيكون قد تبدل خلقًا آخر.. إن علم النفس هو الذي يحتمل مسؤولية تلك الجناية!" وغلت مراجل الغيظ في صدر الفيلسوف حين ذكر أن ذلك الأستاذ الشاب قد أثار حملة شعواء على كتابه "تشريح الإرادة" من أجل هفوة تعتبر من الهنات الهينات ولا تهدم بحال النظرية التي أخذ نفسه بالتدليل على صحتها. وكانت آراؤه تشوبها شائبة التسامي

إلى بعض الألقاب العلمية، والطموح إلى مراكز السلطان. فقال الفيلسوف في نفسه: "إني لأبيحه كتبي يصنع فيها ما شاء وشاء له الهوى، فأما علم النفس؟ علم النفس... الذي يرتبط به مصير هذه الأمة". وإذ كان الفيلسوف يرقب مهاجمة الأستاذ له فقد صحت عزيمته على الرد عليه.

ولبث الفيلسوف يمشي وهو يسائل نفسه: "أصحيح أن روبير جرسلو قتل الآنسة شارلوت؟ إن الشاب الذي تحمله الغيرة على القتل ليؤيد نظريتي التي ذهبت فيها إلى أن غريزتي الهدم والحب تتحركان معًا في نفس الرجل وفي وقت واحد".

وأقبل الفيلسوف على البيت فجاءته مدام جرسلو تسعى قائلة: "أنا التي كتبت إليك بالأمس يا سيدي".

فأجابها الفيلسوف: "لي عظيم الشرف يا سيدتي. وإني ليؤسفني أن تأخرت في الحضور، ولكن كتابك ذكر الساعة الرابعة على أنه لم يمض طويل وقت على مبارحتي غرفة التحقيق حيث استدعيت للإدلاء بشهادتى في شأن ذلك الابن التعس.. وكانت أنفاس الأم الضعيفة الخافتة تنم على ضعفها وإعيائها. فأخذته بها شفقة ورحمة وهو هو الفيلسوف الذي لا تجد أحداث العالم سبيلًا إلى قلبه. وفي ضوء المصباح الذي أوقدته الخادم، والنار التي أشعلتها، رأى الأم المسكينة وجهًا لوجه. فما راعه إلا أن يشهد الغضون المرتسمة في

زوايا فمها، وعلى جانبي أنفها، والشفتين الجافتين من حرارة الحمى، والحاجبين المنقبضين، والجفون المتقرحة، واليدين المرتعشتين المجللتين بالسواد، تحملان أوراقًا ظن الفيلسوف أنها خاصة بموقف المتهم. ثم هوت الأم على الكرسي وقالت بصوت متضعضع: "يا إلهي! يا إلهي: لقد أقبلت إذن متخلفة... لقد كنت أحب أن أتحدث إليك يا سيدي قبل حديثك مع القاضي.. على أني لا أشك في أنك قد توليت الدفاع عنه. فقلت إن ذلك لا يسيغه عقل، وإنه لم يرتكب الجريمة التي يتهمونه بها.. إنك لا تعتقد إجرامه يا سيدي أنت الذي كان يدعوك أستاذه، ويحبك من كل قلبه".

فقال الفيلسوف: "ما كان لي أن أدافع عنه يا سيدتي. فلقد سألوني ماذا كانت علاقته بي، وبما أني لم أره إلا مرتين، وبما أنه لم يحدثني إلا عن دراساته...".

فقاطعته الأم، وقد طارت نفسها شعاعًا: "آه.. لقد قدمت متأخرة.. على أنك يا سيدي ستدلي بشهادتك أمام محكمة الجنايات، فتنادي بأنه ليس بمجرم، ولا يمكن أن يكون مجرمًا. فليس يصح في الأذهان أن يصبح الإنسان مجرمًا بين عشية وضحاها. ونزعة الإجرام تتجلى في نفس المجرم، طوال فترة الشباب. وأولئك قوم يجنحون إلى الشر، وينزعون إلى التبطل وينهمكون في الميسر، ويتسكعون في الطرقات، ويقتلون الوقت قعودًا في مشارب القهوات.. فأما هو، فمنذ نعومة

أظفاره، كان مع أبيه المسكين مكبًّا على الكتب في كل حين.. وكنت أنا التي أقول له: "هيا يا روبير اخرج، ينبغي لك أن تخرج لتبديل الهواء، والترويح عن نفسك". أواه لو تمثلت الحياة الهادئة الناعمة التي كنا نحياها معا، هو وأنا، قبل أن يغشى تلك الأسرة اللعينة؟ وما التحق بها إلا ليخفف العبء عن كاهلي، ويستطيع إتمام دراسته.. فقد كان يقدر لنفسه الحصول على إجازة الأستاذية خلال ثلاث سنوات أو أربع، ثم يتخذ له مكانًا للتدريس في إحدى الجامعات، كجامعة "كليرمونت" مثلًا... وكنت أبتغي له زوجة صالحة، وأكبر همي أن أرعى أبناءه. فقل لي بربك أيجوز في عقل عاقل، أن ولدًا نبت في مثل تلك البيئة، ونما وترعرع وسط تلك الأفكار والآراء، يقدم على ما يسندونه إليه؟ لعمر الحق إن هذا لعار".

فما زاد أدريان سكست على أن قال لها: "هدئي روعك يا سيدتي هدئي روعك!" وكانت هذه هي العبارة الوحيدة التي عرف أن يجيب بها أمًّا وقفت حياله، ونفسها تكاد تذهب حسرات، فتولول بعبارات تمزق نياط القلوب، حين تشهد أعز آمال قلبها تتقوض، وأغلى أماني نفسها تنهار، ومن ناحية أخرى، فقد كان لا يزال تحت سلطان التأثر الذي تركه القاضي في نفسه، فتراءت له وقد ضلَّت ضلالًا بعيدًا، وأصبحت فريسة للأوهام العمياء، فلبث مشدوهًا، يزيده حيرة واضطرابًا تمثل شبح "ريوم" أمام ناظريه، فقد كان يفزعه كما أفزعه هذا الألم الإنساني. فقر في ذهن الأم أن الفيلسوف لا يؤمن ببراءة

ابنها، فأشارت إشارة اليأس، وانثنت عنه مرتاعة فزعة وصاحت في حزن وألم: "كيف، وأنت أيضًا، يا سيدي أتنحاز إلى جانب خصومه؟ وتتشيع لمتهميه؟ أنت؟ أنت؟"

فأجاب أدريان سكست في هوادة ورفق: "كلا، لست خصمًا يا سيدتي وليس أحب إليّ من أن أعتقد ما تعتقدين. لكن أتأذنين لي في أن أكون معك صريحًا غاية الصراحة؟ الوقائع هي الوقائع، وإن وطأتها لشديدة على ابنك البائس.. فابتياع السم خفية، وإلقاء الزجاجة من النافذة، ووجود الزجاجة الثانية وقد أفرغ نصفها واستعيض عن هذا النصف بماء، والخروج من غرفة الفتاة ليلة الوفاة، والبرقية الزائفة، والرحيل المباغت، هذا كله إلى الخطابات التي ألقيت طعمة للنيران، متوجًا كل هذا بالتحصن خلف الإنكار".

فقاطعته الأم قائلة: "ليس في ذلك كله أي دليل يا سيدي.. فأما عن سفره المفاجئ، فتعليله أنه كان يزمع ترك مركزه منذ شهر أو يزيد. وتحت يدي رسائله التي تنبئ عن ذلك العزم، وفوق هذا فقد آذنت مهمته بالانتهاء، ولقد خيل إليه أنهم يودون الاحتفاظ به، على رغم أنه عاف حياة التدريس وود الخلاص منها، فلفرط حيائه وخجله انتحل ذلك العذر، واصطنع تلك البرقية المشؤومة، وهذا كل ما في الأمر.. فأما عن السم فإنه ما ابتاعه خفية، فلقد مضت سنون وجرت أعوام وهو يشكو آلام المعدة. ولشد ما كان يقبل على الدرس في أعقاب

وجبات الطعام.. فأما عن مغادرته غرفتها ليلًا، فمن الذي شاهده؟ اشاهده خادم؟ وإذا كان قد ابتاع ضميره القاتل الحقيقي ليُتهم ابني ويدرأ عن نفسه عبء الاتهام؟ وهل أنا أعلم بدخائل تلك الفتاة، وبمن عسى أن يكون له صالح في قتلها؟ فأما عن الزجاجة الملقاة والأخرى المملوءة إلى نصفها، والخطابات المحترقة، فما هي إلا ذيول خطة مدبرة، وحلقات من سلسلة مصوغة، أريد بها إلقاء الشبهات عليه. فأما كيف ولماذا؟ فالأيام كفيلة بتمزيق القناع عن وجه الحقيقة.. فأما ما أعلمه حقيقة فبراءة ولدي من الجريمة. وأقسم غير حانثة بذكرى والده الراحل أنه بريء. أوَتعتقد أني كنت أدرأ عنه الشبهات بمثل تلك الحرارة لو شعرت بأنه مجرم؟ أما والله لو اعتقدت إجرامه لكان قصاراي التوسل والاسترحام لا أن أرسل الصيحة داوية: العدل! العدل! لا لا، لم يكن من حق هؤلاء القوم أن يتهموه، وأن يلقوا به في غيابة السجن، وأن يلوثوا سمعتنا. فلقد أوضحت لك يا سيدي أن القضية خلو من كل دليل".

فقال الفيلسوف وهو يحسب بينه وبين نفسه أن المرأة المسكينة لم توضح له شيئًا اللهم إلا ثورتها الصاخبة في وجه البديهيات: "إذا كان بريئًا، ففيم الإصرار على التزام الصمت؟"

فصاحت مدام جرسلو: "لو صح أنه مجرم لتكلم وأطال الكلام، ودافع وأسهب في الدفاع، وعمد إلى الأكاذيب يسرف فيها ولا يقتصد،

بل لأغرق المحققين في طوفان من المفتريات. فلا بد إذن أن يكون في الأمر سر، وإني لعلى ثقة أنه يعلم شيئًا لا يود أن يبوح به. ولديه ما يبرر صمته، وأكبر الظن أنه يحجم عن تلويث سمعة تلك الفتاة التي يزعمون أنه كان يتعشقها.. فإذا كنت يا سيدي قد وددت أن أُدرِكَك بأي ثمن، وإذا كنت قد هجرت مدينة "ريوم" يومين كاملين، فإنما ساقتني الرغبة إلى التماس العون منك. فلن يستطيع سواك أن يحل عقدة لسانه، ويحمله على الدفاع عن نفسه، وتبرير موقفه، والإفضاء بالحقيقة كاملة. وأرجو أن تعدني بأنك ستكتب إليه، وستذهب إلى هناك. فذلك دين لي في عنقك. فلشد ما كنت باعث ألمي وأحزاني".

فسأل الفيلسوف: "أنا!"

فأجابت في لهجة تمازجها الحرارة، وبعبارة تشف عن الحنق، ووجهها يفيض حقدًا، ويبض غيظًا: "إذا كان قد فقد عقيدته، فمن ذا يحمل التبعة؟ التبعة منصبة على رأسك يا سيدي، وعلى مؤلفاتك... يا إلهي! لشد ما فاضت نفسي حنقًا عليك في ذلك الحين! إني لأتمثله اليوم يتراءى لي وجهه وهو يقول لي: إنه لن يقدم القربان في يوم الموتى لأن الشكوك تساوره. فقلت له: "وأبوك؟ وفي يوم الموتى!" فما أنسى إجابته لي: " دعيني، فما عدت أعتقد، قضي الأمر". ولقد كان جالسًا إلى مكتبه وأمامه مجلد طواه وهو يتحدث إلي. وإني لأذكر. فلقد قرأت اسم المؤلف بطريقة آلية. فكان اسمك

أنت يا سيدي فلم أجادله في ذلك اليوم. فقد كان رغم حداثة سنه من كبار العلماء، وما كنت إلا جاهلة.. فلما كان الغد، وكان لا يزال في الجامعة، استدعيت القس "مارتيل" لأطلعه على المكتبة. فلقد اعتقدت أن تلك المطالعات هي التي أضلت رشاده وذهبت بهداه، وكان كتابك يا سيدي لا يزال على المكتب. فتناوله القس "مارتيل" وقال لي: "ذلك شرها جميعًا". فعفوًا يا سيدي ثم عفوًا إذا كنت أقسو عليك وأولمك، فلو بقي لولدي دينه كما كان، لتوسلت إلى القسيس أن يحمله على الكلام. لقد استللت من قلبه عقيدته يا سيدي. فلن ألومك بعد اليوم، ولن أحمل لك حفيظة في نفسي، ولكن ما كنت سأطلب من القس سأطلبه منك أنت... آه لو أنك سمعته يوم قفل من باريس؛ لقد كان يقول لي: "إنك لا تعرفينه يا أمي، ولو أتيحت لك معرفته لأكبرت قدره أيما إكبار، إنه لقديس. فعدني أن تحل عقدة لسانه ليتكلم، ليتكلم من أجلي ومن أجل أبيه، ومن أجل أولئك الذين يحبونه، بل من أجلك يا سيدي أيضًا. فليس يصح في الأذهان أن يكون أحد تلاميذك قاتلًا. فما من شك في أنه تلميذك وأنك أستاذه. فهو مدين لك بالدفاع عن نفسه كما هو مدين لي أنا أمه".

فقال العالم بلهجة تشف عن الخطورة والجد: "إني أعدك يا سيدتي أن أصنع كل ما في وسعي أن أصنعه". فتراءت له في المرة الثانية في ذات اليوم مسؤولية الأستاذ حيال تلميذه. نعم، لقد لمح تلك المسؤولية بارزة خلال أقوال قاضي التحقيق، ثم لمسها بيده في عبارة مدام جرسلو.

ثم قالت وهي تكفكف عبراتها: "لقد قال لي: إنك طيب القلب ولقد جئتك لأؤدي رسالة عهد بها إليّ ذلك الولد التعس. فعسى أن تجد بين ثناياها دليلًا جديدًا على براءته. فلقد لبث في السجن شهرين وضع خلالها بحثًا مستفيضًا في الفلسفة. وقد كلفني بتقديمه إليك". ثم قدمت للفيلسوف الأوراق التي معها وقالت له: "ما زالت الأوراق على الحالة التي أعطاني إياها. وهم يدعونه يكتب كيف يشاء، لأنهم جميعًا يحبونه، ولقد سمحوا لي بمخاطبته بغير وجود الحارس. فأراه الآن في غرفة المحامين.. ومن ذا الذي يعرفه ثم لا يحبه؟ لقد كان يصدقني القول دومًا. وإذا كان قد اختار أن يخصك بالكتابة فما ذاك إلا لأنه يريد أن يفضي بالحقيقة إليك وحدك".

فقال أدريان سكست وهو يفض غلاف الأوراق "سأرى ذلك في الحال". ثم ألقى نظرة على الصفحة الأولى من الكراسة، فاستطاع أن يقرأ فيها الكلمات التالية: "علم النفس الحديث" وقرأ في الورقة الثانية عنوانًا آخر: "مذكرة عن نفسي" وتحت هذا العنوان السطور التالية: "أرجو أستاذي العزيز، المسيو أدريان سكست أن يتعهد بشرفه أن يحتفظ لنفسه بالصفحات الآتية. فإذا لم يرق له أن يأخذ على نفسه هذا العهد حيال تلميذه التعس، فإني أطلب إليه أن يتلف هذه الكراسة، وإني لعلى ثقة أنه لا يسلم تلك المذكرة لكائن من كان، ولو كان تسليمها في سبيل إنقاذ رأسي". وقد وقَّع الشاب الرسالة بأحرف اسمه الأولى.

وبينما يتصفح الفيلسوف أوراق الكراسة وهو في أقسى حالات الاضطراب والقلق سألته: "ماذا رأيت؟"

فأجابها وقد طوى الكراسة وبسط أمام عينها الصفحة الأولى: "ليس هذا إلا بحث فلسفي محض كما أخبرك. فانظري".

وبينا كانت الأم تجيل نظرها خلال الصيغ الفنية التي يقصر إدراكها عن تفهُّم مراميها، طاف بفمها سؤال حائر، وانطبعت على عينها مظاهر عدم الثقة والتصديق، إذ شهدت أدريان سكست حيران مترددًا، على أنها لم تجترئ على السؤال فنهضت وهي تقول: "معذرة يا سيدي إذا كنت قد أطلت المكث لديك. فلقد وضعت فيك آمالي، وما أنت ممن يخدع قلب أم، وإني لأسجل عليك وعدك".

فأجابها بلهجة تشف عن الخطورة والجلد: "سأفعل يا سيدتي كل ما في طوقي حتى تنجلي الحقيقة. وإني لأعدك كرة أخرى".

فلما شيعها إلى الباب، وألفى نفسه في المكتب وحيدًا، غرق في بحار التأملات. ثم تناول النسخة الخطية التي ألقت بها إليه مدام جرسلو، فقرأ العبارة التي خطها الشاب بيده، ثم قرأها، وكلما نازعته نفسه إلى مطالعة الكراسة، دفعها بيده، وأخذ يذرع غرفة المكتب جيئة وذهوبًا. ولقد أمسك بالأوراق مرتين، ودنا من النار، وهم بإلقائها فيها، على أنه كان في كل مرة يحجم عن أن يجعلها طعامًا للهب. وكانت رأسه مثارًا لمعركة مشبوبة النيران، وظلت تتنازعه عوامل متباينة، بين

أن يستسلم لتلك الرغبة الملحة في الاطلاع على اعترافات تلميذه، وبين أن يتفادى المخاوف التي تساوره. وفي الحق فإن العهد الذي يأخذ نفسه به مضافًا إلى ما يمكن أن يتبينه من ثنايا تلك الأوراق قد يقذف به في مأزق حرج. أفيطوع له ضميره أن يكون بيده الدليل على براءة الشاب ثم لا يستطيع تقديمه؟ وماذا يكون موقفه إذا كانت تلك الأوراق تحمل في ثناياها الدليل على إدانته؟ وخشي أن يجد فيها، إن صح أن في الأمر جريمة، مظهرًا لتاثيره، ومصداقًا للاتهام القائل إن كتبه قد لعبت دورًا مهمًّا في تلك الجريمة المروعة. ورأى أنه لا يجمل به أن يتورط في تلك المأساة. فقال في نفسه: "كلا لن أقرأ تلك المذكرة وسأكتب إلى ذلك الفتى كما وعدت والدته. ثم ينقضي الأمر". ثم أقبلت ساعة عشائه، فجلس إلى المائدة وحيدًا على مألوف عادته. فلما فرغ من تناول العشاء جلس على مقعد ولم يخرج، وأمامه مذكرة روبير جرسلو. وظل حينًا نهبًا للتردد، ثم تغلبت طلعة الفيلسوف على أحكام الضمير، فأقبل على المذكرة يقرأها، ولبث يقرأ حتى كانت الساعة الثانية صباحًا، وكان أولى بتلك القطعة التحليلية التي أسماها روبير جرسلو: "مذكرة عن نفسي" أن تدعى:

"اعترافات شاب من شباب اليوم".

اعترافات شاب

"سجن ريوم في يناير عام 1887"

"أكتب إليك يا سيدي هذه المذكرة عن نفسي، وقد أبيتها على المحامي رغم توسلات أمي. وإني لأكتبها إليك أنت الذي لا يعرف من حياتي الخاصة إلا النزر اليسير، في أدق المراحل وأحرجها. والذي حملني على كتابتها هو ما جعلني أحمل إليك باكورة مباحثي. فإني لتربطني بك، أنت الاستاذ الجليل، وأنا تلميذك المتهم بجناية هي شر الجنايات وأخزاها، رابطة يعجز الناس عن إدراكها، بل ربما خفيت عنك، وإن كنت قد أحسها في أعماق نفسي، وأشعر أنها رابطة لا انفصام لها. فلقد عشت بفكرتك ولفكرتك في الساعة الفاصلة من ساعات وجودي. والآن، وأنا نهب آلام نفسية ممضَّة أتوجه إليك على أنك الواحد الفرد الذي يمكن أن ألتمس في شدتي عونه. ولا يحسبن، سيدي وأستاذي، أن مبعث ما أقاسي من فزع واضطراب، هو ما يحيط بي من مظاهرالعدالة، فلا كنت جديرًا بلقب الفيلسوف إن لم أكن قد آمنت بأن فكرتي هي الحقيقة الوحيدة التي يجب اتقاء حسابها، أما ما عداها من مظاهر العالم الخارجية فليست إلا سلسلة من المشاهد الجوفاء. وقد يُقضى علي بالإعدام بعد ستة أسابيع من أجل تلك الجريمة التي لم أقترفها - وستتبين بعد مطالعة هذه الصفحات لماذا أحجم عن درئها ـ ثم

أمشي إلى الموت رابط الجأش، ثابت الجنان، لا تعروني هزة اضطراب، وأستقبل الحادث الجلل غير وجل ولا هياب استقبإلى قول الطبيب لي: إن بقلبي علة توشك أن تقضي عليَّ. ولو حكم بإعدامي لغالبت بقوة تلك النزعة الحيوانية التي تثيرها غريزة حب البقاء، ثم لناهضت اليأس المستولي على نفس والدتي. ولا أخفي عن أستاذي العزيز، أني وإن لم أقتل الآنسة شارلوت، فإني قد انغمست في مأساة تسممها، ولذا أشعر الآن بوخز الضمير، رغم أن علمتني المذاهب التي أدين بها، والحقائق التي علمتها والعقائد التي تتألف منها عقليتي، بأن الضمير هو أغبى الأوهام الإنسانية جميعًا ً. فأود أن أسمع منك، وأنت الطبيب بأمراض النفس البشرية، كلمة ترد السكينة إلى قلبي، وتقنعني بأني لم أكن مخدوعًا حين اعتنقت المذاهب العصرية، ثم إني بائس أريد أن أفضي ببؤسي، لأروِّح عن نفسي، وأزحزح الكابوس الجاثم على صدري. ومن أكاشف إذا لم أكاشفك، وأنت القادر على أن تدرك كنه نفسي، وحقيقة عقلي. ولقد لبثت في السجن زهاء شهرين فما عدت لصوابي بعد تلك الحوادث الفظيعة إلا حين هممت بالكتابة إليك. ولقد حاولت على غير جدوى، أن أشتغل ببعض البحوث التجريدية. ومضت أربعة أيام وأنا مكب على الكتابة إليك، في غفلة من أعين الرقباء، فعاودتني قوة تفكيري، والآن لا يخامرني شك في أن عوامل الوراثة هي منشأ الأزمة التي أعاني، وأن مبعثها البيئة الفكرية التي عشت فيها، والبيئة الغريبة التي انتقلت إليها، وقوامها أسرة جوسات.

الوراثة

ولدت، أنا روبير جرسلو، بمدينة كليرمونت في ٥ سبتمبر من عام ١٨٦٤ وكان والدي الذي فقدته وهو شاب، من أصل لوريني، يشغل وظيفة مهندس جسور وطرق. وإذا تمثلته تمثل لك ضئيلًا ضعيف الصحة مهزولًا، لا ينبت في ذقنه إلا شعر قليل، وعلى وجهه طابع وقار يشف عن الحزن العميق. وما ذكرته، على تمادي الأعوام، إلا آثار الشفقة والحنان في قلبي. وإنه ليتراءى لي الآن وهو في مكتبه مكب على عمله. وكانت المحطة على كثب من بيتنا، فكان صفير القطار يصل دون انقطاع إلى ذلك المكتب الهادئ الساكن. وكنت ألهو في أرض الغرفة، على مقربة من النار، في هدوء وصمت، فيحدث ذاك الصفير أثرًا عميقًا في نفسي، كالأثر الناشئ من الاصطدام بسر رهيب، أو الإحساس بالاغتراب، أو الشعور بفناء الساعات وتلاشي الحياة. وكان أبي يخط بالطباشير على السبورة رسومًا هندسية أو صيغًا للجبر لا أدرك شيئًا منها. وكانت المكتبة، وصور العلماء، هي كل ما تزدان به الحجرة. وما ذكرت هذه مفصلًا إلا لتعلم أني كنت منذ حداثتي أتوق إلى حياة التفكير والمثل الأعلى، نعم، لقد كنت أوثر التفكير على الحركة، حتى إن الزيارة المجردة كان يخفق لها قلبي. بل ما كنت أجسر على أن أناضل أحدًا وجهًا لوجه في سبيل أعز الآراء على

نفسي، وأحبها إلى قلبي. وما من شك في أن هذا النفور من الحركة يسوق الإنسان إلى الانهماك في التفكير، حتى يصبح بمعزل عن حقائق هذا العالم

ولقد ورثت عن أبي مرض المجموعة العصبية مرضًا يجعل الإرادة تندفع في بعض الأحيان دون أن يكبح جماحها كابح. ومات أبي وهو شاب، إذ لم يكن متين التركيب. وكان عليه وهو فتى أن يجوز امتحان مدرسة الهندسة، فقضى ذلك الامتحان الدقيق على صحته بالضعف والوهن. فلم أرث عنه القوة الجثمانية التي تقاوم حساسية أعصابي المرهفة.

ولقد استرعى نظري أن أرى أمى إلى جانبي تؤدي فريضة الصلاة في الكنيسة، على حين لم أر أبي فيها أبدًا. فبدا لي يومًا أن أسأل والدتي: "لماذا لا يحضر أبي معنا للصلاة". ولم يعسر علي، رغم طفولتي، أن أدرك مبلغ الاضطراب الذي أحدثه سؤالي في نفسها، فقالت لي: "إنه يؤدي الصلاة في جهة أخرى. ألم أقل لك مرارًا إنه لا يجمل بالأبناء أن يتساءلوا عما يصنعه الآباء". ومن ذلك اليوم لم يبق أثر للاتصال الروحي بيني وبين أمي.

ولشد ما كان أبي يحب الريف الذي نشأ فيه. وكثيرًا ما اصطحبني في غدواته وروحاته، فإذا جاء إلى جبل عُني بدراسة تكوين الأرض. وإذا اقتطف زهرة تعرَّف اسمها، ودرس طبيعتها. وإذا التقط حشرة

اشتعل بدرس فصيلتها؛ وتكوينها الخلقي. وكان يحدثني حديث ذلك كله. فما من عجب أن توجد فيَّ الروح التحليلية. ولو ظل أبي على قيد الحياة لاعتنقت العلوم العملية.

ولما بلغت العاشرة من عمري، وكنا في نزهة معًا، هبَّت علينا عاصفة هوجاء، غمرت ثيابنا بالماء، وكأنما كنا نسبح ولا نمشي. فرجعنا بأثوابنا مبللة، فأصيب ببرد شديد. فما أقبل المساء حتى كان يشكو الرعدة، ويألم من القشعريرة، وما أن مضى يومان حتى أصيب بنزلة صدرية، ثم ما لبث أن قضى نحبه.

ولقد ذهلت لموته أكثر مما حزنت لفقده، واليوم فقط أستطيع أن أقدر مبلغ الخسارة التي تحملتها بفقده. فلقد غرس في نفسي حب الحياة العقلية، وبث في قلبي روح الإيمان بالعلم. هذا من الناحية الفكرية، فاما من الناحية الخلقية، فلقد راضني إلى التفكير، وزهَّدني في الحركة إلى حد أن عافتها نفسي، وأصبحت أعجز من أن أقاوم أهوائي الجامحة.

وإن تعجب فاعجب، وقد أصبحت وأمي وحيدين في هذا الوجود، وهي المملوءة نشاطًا وإخلاصًا وأنا الشاب، إن لم توجد بيننا رابطة قلبية حتى في السنوات الأولى. ولقد سمعتها مرة تحدث إحدى الزائرات فتقول: "إني لأخشى أن يكون ولدي بلا قلب ولا عاطفة. فإنك لا تستطيعين أن تصوري لنفسك تحجر فؤاده يوم موت

أبيه... وما أقبل الغد حتى نسي ذكراه.. ومنذ موته لم يذكره بكلمة واحدة.. وإذا خاطبته بشأنه فلا يكاد يجيبني.. ويخيل للإنسان أنه لم يعرف ذاك الرجل الذي كان يغمره بحبه، ويسبغ عليه عطفه، ويفيض حنانًا عليه".. وحق إني لم أتكلم عن أبي، ولكن باطل أني نسيته فلم أذكره. فما مررت بإفريز، ولا اجتزت طريقًا، ولا شهدت شيئًا من أثاث بيتنا، دون أن يوقظ ذكرى أبي في قلبي، إيقاظًا يشيع الآلام في أعماق نفسي.

وضاعف الانفصال الروحي بين أمي وبيني أنها رأتني يومًا أطالع بعض الكتب الأدبية التي كان يقتنيها أبي، فانتهرتني، وأخذتها مني عنوة، فأودعتها المكتبة، ثم حرصت على مفاتيحها، مخافة أن أعاود مطالعتها.

البيئة العقلية

كنت بين الحادية عشرة، والخامسة عشرة، يافعًا ورعًا تقيًّا. وفي العهد الذي أتحدث عنه، تولّى الحزب الديمقراطي مقاليد الحكم في فرنسا، فطغت على باريس والريف موجة متدفقة من أمواج حرية الفكر. وأنا ابن امرأة تقية، فَحُمِلْتُ على تأدية كافة الفرائض الدينية. فكنت أختلف إلى الكنيسة كل خمسة عشر يومًا، فأركع على ركبتي وأتمتم بصوت خافت، وقلبي يخفق، بكل ما يطوف بنفسي. وكانت خطاياي تتمثل لي جرائم أخجل من الاعتراف بها، وكان القس مارتيل إذا حدثنا عن الجحيم، أبرقت عيناه، وسرى الفزع من نفسه إلى نفوسنا. وجئته يومًا أبكي، وأذكر له أني رأيت اثنين من أصحابي يسخران من امرأة داخلة إلى الكنيسة، فشاطرتهم الضحك، بدل أن أنهاهم عن السخر من تلك المرأة.

وإنما عصفت بعقيدتي روح النقد، وهي الملكة التي تهدم الإيمان، وهي التي فرقت بيني وبين أمي. ثم إني رأيت الرجال الذين على شاكلة أبي لا يؤدون فروض الدين. فالأساتذة الشبان الذين يقدمون علينا من باريس كانوا كلهم من المتشككة أو من الملاحدة. ومحا البقية الباقية من إيماني، الأدب الحديث الذي توافرت على

دراسته منذ بلغت الرابعة عشرة من عمري. وإذا كانت أمي قد حالت بيني وبين كتب أبي فقد غنيت عنها بكتب صديق لي كان مثلي شديد الشغف بالمطالعة، كذلك كانت حالتي النفسية حين بدأت دراسة الفلسفة في الجامعة. وبينا أنقب عن المؤلفات التي توضح اللبس الذي أجده في شرح أستاذي وجدت كتاب "روح الله"، فأغرمت به إغرامًا شديدًا. فنازعتني نفسي إلى أخويه، "نظرية العواطف" و"تشريح الإرادة". فكان أثره الفعال في نفسي من الوجهة العقلية، كأثر مؤلفات "موسيه" من وجهة الحساسية الخفاقة، والعواطف الجياشة. وبذلك سقط القناع، وتبددت الظلمات التي كانت تكتنف العالم أمام ناظري. واهتديت إلى الطريق وأصبحت تلميذك.

البيئة الجديدة

أقبلت على الدراسة إقبالًا شديدًا، فأصبت بمرض خطير أكرهني على الانقطاع عن التحضير لدخول "مدرسة النورمال". فما إن أبللت من مرضي حتى ضاعفت دراستي للفلسفة، مع متابعتي لدرس البيان. ثم تقدمت للمدرسة في الوقت الذي تشرفت باستقبالك إياي. أما الحوادث التالية فأنت تعلمها ولا تجهلها. فقد أخفقت في الامتحان.

وفي شهر نوفمبر من عام ١٨٨٥ قبلت أن أكون مدرسًا في أسرة "جوسات راندون". ولقد كتبت إليك إذ ذاك أني قد تنازلت عن استقلالي لعلي أخفف الأعباء المالية عن عاتق والدتي. أضف إلى هذا أني كنت أداعب الأمل بأن ما أقتصد من أجر التدريس، قد يعينني، متى نلت إجازة الليسانس في الأدب، على أن أهيئ نفسي لنيل إجازة الاستاذية في باريس. فقد حببت إلى الإقامة في تلك المدينة آملا ان أتخذ لي مسكنًا على مقربة من شارع "جودولابروس" حيث تقيم. فلقد تركت زيارتي إياك في صومعتك، أثرًا عميقًا في نفسي. وشبه لي أنك "سبينوزا" العصر الحاضر، للطباق بين حياتك وكتبك، تلك الحياة التي كرستها للعلم، ووقفتها على التفكير. ولقد ظللت أشيد قصور السعادة وعلاليها، لتوهمي أن سأعلم بأوقات رياضتك،

وسألقاك في حديقة النباتات، وأنك سترضى أن تسدد خطواتي، فإذا التمست عونك، ووثقت من معاضدتك، استطعت أن أظفر بالمكانة في ميدان العلم. فقد كنت لي الحقيقة الحية، والأستاذ الهادي، بل كنت مني بمنزلة "فوست" من "فجنر" في رواية "جوته" الخالدة، وكانت الشروط التي قدمت لي عن التدريس مرضية. فقد كان عليّ أن أصطحب غلامًا في الثانية عشرة من عمره "وهو الابن الثاني للمركيز دي جوسات". ولقد علمت منذ ذلك الحين كيف أَوت تلك الأسرة طوال فصل الشتاء، إلى ذلك القصر القريب من ضفاف بحيرة "إيدات"، على حين أنها ألفت أن تقضي فيه أشهر الخريف عادة. فلقد كان المسيو دي جوسات وزيرًا مفوضًا في عهد الإمبراطور، فأصابته أزمة مالية، ضاعف من آثارها، وشدد من وطأتها، ما خسره من المضاربات في البورصة فرهنت أملاكه، وتضاءل إيراده، فاضطر إلى تأجير قصره بأثاثاته في "الشانزليزيه" بإيجار كبير، ثم وصل إلى أرضه في جوسات، وهو يزمع أن يبرحها إلى بيته في مدينة "كان". فسنحت له فرصة جميلة لتأجير ذلك البيت. وأغرته بتأجيره الرغبة الملحة في موازنة دخله وخرجه. هذا إلى أن مرضه العصبي قد حبب إليه أن يسكن إلى الوحدة عامًا كاملًا. وفى ذلك الحين، سافر مدرس ولده "لوسيان" فجأة، فما كان يرضى أن يقبر نفسه حيًّا طوال الشهور. وكذلك عجل المركيز بالشخوص إلى "كليرمونت" ولخمس وثلاثين خلت، كان قد درس علم الحساب على المسيو "ليماسيه" صديق

والدي القديم. فبدا له أن يطلب إلى أستاذه أن يأتيه بشاب متعلم، ذكي، فيه الكفاية لتعليم "لوسيان" طوال هذا العام. وأبدى استعداده لأن يبذل خمسة آلاف فرنك في هذا السبيل. فكان من الطبيعى أن يتجه فكر مسيو "ليماسيه" إليَّ، وقبلت أنا، للاعتبارات التي بسطتها إليك، وارتضيت أن أمثل بين يدي المركيز باعتباري مرشحًا لذاك المركز. وفي بهو من أبهاء المنزل المشرف على ميدان "جود"، رأيت رجلًا مديد القامة، أصلع الرأس، ذا عينين زرقاوين، ووجه يضرب لونه إلى الحمرة، ما كلف نفسه مؤونة النظر إليّ. ثم انطلق يتكلم دون انقطاع، وفي خلال حديثه يقحم عن صحته، بين الفينة والفينة، بينا هو يوجه النقد المر اللاذع للتربية العصرية. وفي الواقع فقد كان المريض الوهمي الذي يحسب أن قد اصطلحت عليه العلل، وتحالفت عليه الأمراض، على حين أنه الصحيح المعافى. ولكأني أسمعه الآن، يلقي القول جزافًا، ويرسل الكلام اعتباطًا، فيكشف هذا الخبط والخلط، أو ذاك التخليط في الكلام، عن صورة نفسه، وحقيقة خلقه، وليس يسعني إلا أن أقدم لك طرازًا من هذا الخبط، ولونًا من ذاك الخلط، لأعطيك صورة صحيحة واضحة عن البيئة الجديدة التي قذفت بي إليها الأقدار الساخرة. قال المركيز: "قل لي يا ليماسيه، متى تحضر لترانا؟ إن المناخ هناك طيب. وذلك ما ينبغي لي. فقد كنت في باريس لا أكاد أتنفس. وفى الواقع فإن الناس لا يتنفسون ما فيه الكفاية". ثم يلتفت إليّ ويقول: "أرجو يا سيدي أن لا تكون من أنصار

الطرائق الحديثة في التعليم. فقد ملأوا آذاننا بكلمات العلم، ولا شيء غير العلم! والله، ماذا صنعتم به، أيها السادة العلماء...". ثم يتوجه بالقول إلى مسيو "ليماسيه": "إني أستطيع أن أقول، إن في عصري، في عصرنا، كان لا يزال هناك شعور بفروق الطبقات، وبوجوب توقير الصغير للكبير، وضرورة عطف الثاني على الأول، وبالواجب. وما كان الناس يهملون جانب التربية في سبيل التعليم. أتذكر القس "هابير" وكيف كان يتدفق بالكلام، ويفيض بالحكمة، وفصل الخطاب؟ يا لها من صحة! ويا له من رجل كان يمشى بخطى ثابتة، في كل حين، دون وهن أو تخاذل! ولكن أنت، يا "ليماسيه" كم عمرك؟ أظنك قد نيفت على السبعين؟ سبعين عامًا ثم لا تشكو ألمًا؟ ولا ألمًا واحدًا؟.. أفلا ترى أن صحتي قد تقدمت منذ اخترت الإقامة في الجبال؟.. الحق أني لست مريضًا بمعنى الكلمة، لكن هناك أبدًا شيء بسيط... ولعله يثير دهشتك، إني أبتغي أن أكون مريضًا حقًّا وصدقًا. ففي تلك الحالة على الأقل، يتعين على أن أعالج نفسي، وأعنى بصحتي".

فإذا كنت أضع تحت نظر أستاذي العزيز، هذا القول المتخاذل المفكك الأوصال، بقدر ما وعته ذاكرتي، فما ذاك إلا لأني أبغي أن أقدم بين يديك صورة بارزة لعقلية ذلك الرجل، الذي اجترأ، كما علمت من والدتي، على أن زج باسمك الكريم في غمار تلك المأساة. وكذلك أقصد أن أكشف لك عن جانب من جوانب حالتي النفسية، بعد أربعة أيام من قدومي على ذلك القصر الذي اصطدمت فيه بأبشع

الحادثات هولًا وأشدها شنعة، ولقد ارتضى المركيز، منذ الزورة الأولى، أن أكون معلم ولده "لوسيان". ثم تلطَّف فأبى إلا أن أصحبه في العربة. وفي أثناء رحلتنا من "كليرمونت" إلى "إيدات" أفضى إليّ بقصة أسرته. فأوضح لي أن امرأته وابنته لا تقبلان على الملاهي، وأنهما قد برعتا في إدارة شؤون البيت، حتى لتصلح كلتاهما لأن تكون ربته. وكان يمزج الكلام بثرثرته التي لا بد منها، وتتخلل حديثه الإشارة إلى شخصه، ثم يعود إلى الكلام عن صحته. وقال لي إن ابنه البكر، الكونت أندريه، سوف يقضي بين ظهرانيهم خمسة عشر يومًا، وأنه لا ينبغي لي أن أتبرَّم بخشونة جانبه، وجفوة طباعه، فإن صدره ينطوي على قلب يفيض عطفًا وحنانًا. وإن ابنه الثاني لوسيان كان يشكو مرضًا خطيرًا، وإن ما يجب أن تتجه إليه العناية هو أن تضفى عليه أثواب الصحة، وتسبغ عليه حلل العافية ضافية. فما أن فاه المركيز بكلمة الصحة، حتى أخذ يبدئ فيها ويعيد، ولبث ساعة كاملة يتحدث عن أوجاع رأسه، وسوء هضمه، والأرق الذي يقض مضجعه، وآلامه في الماضي، والحاضر، والمستقبل أيضًا، ثم أنهكه التعب، فلشد ما استقبل الهواء، وفاض في طوفان من الكلام، حتى أسلم عينيه لِلْكَرى في زاوية العربة.

وإني لأذكر الخطط والأساليب التي كانت تطوف إذ ذاك برأسي، بعد أن تزحزح الكابوس الجاثم فوق صدري، ونام ملء جفونه الرجل الذي ما كدت أعرفه حتى غمرته بازدرائي، حين انطلقت بنا العربة

تنهب الأرض نهبًا، بين المروج الخضراء، والجبال الشماء، والغابات المورقة الأفنان. وأن ما رأيته من المركيز، وما كشفته لي محاضراته عن بيته، كان كفيلًا بإقناعي أني سأكون في بيئتي الجديدة في موقف المقضي عليه بالنفي بين قوم دعوتهم بالمتبربرين. وهو اللقب الذي أطلقته منذ سنين على أولئك الذين يظلون بعيدين عن مثار الحياة العقلية.

على أني لم أفزع من ذلك النفي ولم أجزع. فالمذهب الذي اتخذته نبراسًا لحياتي، والعقيدة التي أقمت على ضوئها تنظيم وجودي، كانا واضحين في ذهني إلى أقصى حدود الوضوح. فلقد صح عزمي على أن أعيش سجينًا في نفسي، أذود عن حرمها المقدس كل دخيل. فأما هذا القصر الذي أختلف إليه، والقوم الذين تضمهم جوانحه، فلن يكونوا في اعتباري إلا بمثابة المادة التي أحرص على أن أستغلها في سبيل فكرتي إلى أقصى حدود الاستغلال، فقد تحدد برنامجي، إذ صحت عزيمتي، طوال الاثني عشر أو الأربعة عشر شهرًا التي سأقضيها بين ظهرانيهم، على أن أكرس أوقات فراغي لدراسة اللغة الألمانية، ومطالعة مجلدي بونيس في علم وظائف الأعضاء، ذينك المجلدين اللذين تغص بهما حقيبتي الصغيرة، مع مؤلفات أستاذي العزيز، ومؤلفات عدة للمسيو ريبو، والمسيو تين، وهربرت سبنسر، وبضع روايات تحليلية والكتب الضرورية للتأهب لنيل إجازة الآداب. وقد كنت أقدر أن أجوز الامتحان في شهر يوليو. وأعددت

كراسة بيضاء لأسطر فيها خواطري عن أخلاق القوم الذين أصبحت بين ظهرانيهم. وأخذت نفسي بأن أدرس نفسياتهم جملة وتفصيلًا، فابتعت قبل الرحيل كراسة كتبت على غلافها العبارة التالية المنتزعة من كتاب "تشريح الإرادة": "كان سبينوزا يباهي بأنه يدرس المشاعر الإنسانية، كما يدرس الرياضي رسومه الهندسية. فأما العالم النفسي العصري فينبغي له أن يدرسها كما يدرس المزيج الكيميائي في آنية التقطير مع هذا الفارق الذي يدعو إلى الأسف ويبعث الأسى، وهو أن وعاء النفس البشرية، ليس شفافًا، ولا قابلًا للتصرف، مثل وعاء التقطير في معمل الكيمياء". وإني لأقص عليك ذلك العبث الفارغ، لأدلك على أني كنت مخلصًا وفيًّا، وأني حين انطلقت بنا العربة في الطريق إلى "إيدات"، كنت قليل الشبه بذاك الشاب الطامح الفقير الذي طالما رسمت صورته أقلام الروائيين.

وتولتني الدهشة التي تتولى كل من ينتقل من بيئة إلى بيئة أخرى. على أنك إذا فتشت في جوانب نفسي لم تجد أثرًا للحقد أو الطماعية. فلقد كنت أنظر إلى المركيز حين أخذته سنة من النوم، في يوم من شهر نوفمبر، وقد تدثر بالفراء التي تدفع عنه عادية البرد، وأسدل على ساقيه غطاء من الصوف يقيه غائلة الزمهرير، ووضع يديه في قفازين من الجلد، وعلى رأسه قبعة تكاد تخفي عينيه. وأن تلك الصورة وحدها لتكشف عن البون الشاسع، والهوة العميقة المظلمة، بين تلك الحياة الناعمة المترفة التي يحياها المركيز وأسرته، وحياة المسغبة

التي أعانيها أنا وأمي. ولولا الادخار، وإن شئت التقتير، الذي تأخذ أمي نفسها به، لقضت علينا المتربة، بل لذهبنا ضحايا البؤس والشقاء.

وابتهجت كثيرًا إذ لم أشعر بشيء من الحسد أمام ذاك الثراء الطائل، والنعمة الوارفة الظلال، أجل! ما أحسست بحسد وحقد فقد كنت واثقًا من نفسي، مدرعًا بعقيدتي، أو عقيدتك، معتدًّا بتفوقي في ميدان الفكر، وسموي في عالم العقل. وإني لأتم لك تصوير نفسيتي إذ قلت إني قد اعتزمت أن أستبعد الحب من برنامج حياتي، وأن أقف تلك الحياة على تكريم العلم، وتقديس العلماء. بل لقد فكرت في أن أدرس شعائر العبادة في الأديرة لأطبقها على عبادة الفلسفة. فأطلق العنان لتأملاتي الفلسفية، كما يصنع جماعة الرهبان حين يسترسلون لتأملاتهم الدينية، وأن أحتفل في كل يوم، كما يفعل الرهبان، بذكرى أولئك الذين أنزلهم من نفسي منازل القديسين، بذكرى سبينوزا وهوبز، وستندهال، وستيوارت مل، وأنت يا أستاذي العزيز، على أن أتمثل صورة من أحيي ذكراه، وأستعرض مذاهبه، وأروض نفسي على التشيع له، والتشبع بمبادئه. ولا أكتمك أن ذلك كله لم يكن إلا فورة الشباب، وغرارة الصبا. على أنك ترى أني لم أكن ذاك الفقير الطامح الذي يحلق في أجواء الخيال، ويسبح في سماء الأحلام، ليظفر بصفقة رابحة في الزواج كما تزعم اليوم تلك العائلة. ولئن كان خاطر إغراء الآنسة "شارلوت"، وخداعها عن عفافها، قد خطر ببالي، فإنما انغرس في ذهني اعتباطًا، وأملته عليّ الظروف، وأوحت به إليّ الملابسات.

لست أكتب إليك لأسبغ على نفسي الثوب الروائي. ولا أخفي عنك أن من بين الظروف التي حملتني على الإغراء، وقد كان بعيدًا عن ذهني يوم قدمت، الأثر الذي تركه الكونت أندريه في نفسي. بل لا أكذبك أن ذلك الأثر كان في طليعة الظروف التي ساقتني إلى الإغراء سوقًا. والكونت أندريه، كما ذكرت لك، هو شقيق تلك المسكينة التي قضت، والتي لا تزال ذكراها عالقة بقلبي، وكلما دنوت من غاية المأساة تضاعفت آلامي، ولكن لنعد إلى حديث قدومي. كانت الساعة قد ناهزت الخامسة وانطلقت العربة مسرعة في السير. واستيقظ المركيز من نومه. فأشار إلى مياه بحيرة إيدات الصغيرة التي أكسبها غروب الشمس لونًا ورديًّا. وهناك القصر الضخم الفخم المشيد على الطراز الحديث ذو اللون الأبيض والأبراج العالية. وها نحن أولاء في الطريق المزدان بالأشجار، المفضي إلى القصر، ثم لا نلبث أن نكون أمام بابه، ثم نغشى البهو، فننفذ إلى قاعة الاستقبال. ولشد ما كانت قاعة الاستقبال هادئة، ترفرف عليها أجنحة السكينة، وقد أضيئت بالمصابيح الكبيرة، واضطرمت نيران التدفئة في الموقد. وكانت المركيزة دي جوسات مشتغلة مع ابنتها في إعداد الثياب للفقراء. وكان تلميذي في المستقبل واقفًا أمام "البيان" ينظر في كتاب مزين بالصور. وكانت مربية الآنسة شارلوت مع امرأة متدينة، جالستين بعيدًا، ومشتغلتين بالحياكة. وكان الكونت أندريه يتصفح جريدة ألقاها لدى قدومنا. أجل، لشد ما كانت قاعة الاستقبال هادئة

ساكنة، ومن الذي كان بوسعه أن ينبئني بأن مقدمي سيؤذن بوضع حد لسلام هؤلاء الناس الذين يتراءون الساعة أمام ناظري كأنهم صور حية ناطقة؟ وإني لأتمثل وجه المركيزة، تلك المرأة الطويلة القامة، المكتنزة اللحم، ذات الملامح الجهمة، وهي صورة تغاير تمام المغايرة، ما ارتسم في مخيلتي عن عقيلة من كريمات العقائل. ولقد بدت لي، كما حدثني المركيز، المثل الأعلى لربة البيت، ولكنها ربة بيت ناضجة التربية، وما لبث أن خاطبتني بشأن اليوم البديع الذي قضينا فيه رحلتنا، حتى هدأت روعي، وألقت السكينة في قلبي. ولكأني الآن أشهد محيا الآنسة "اليزالرجكس" المربية، وقد انطبعت على شفتيها ابتسامة تضيء جوانب سحابة الكآبة التي تظل وجهها. وإني لأرى الأخت "أنكليه" بوجهها الريفي، وفمها الدقيق. وكانت تقيم دائمًا في القصر، لتكون ممرضة المركيز الذي يخشى أبدًا هجوم المرض. وإني لأرى "لوسيان" الصغير بوجهه الذي ينم عن الجنوح إلى الكسل. وإني لأتمثل تلك التي لم يبق منها إلا ذكراها. نعم، أتمثلها غادة هيفاء، في ثوبها الأنيق، وعينيها النجلاوين اللتين تفيضان حنانًا ورحمة، وشعرها الكستنائي، ومحياها الوضاح، ويدها الغضة التي قدمت لأبيها ولي، قدحًا من الشاي يدفع عنا عادي البرد. ولكأني أسمع صوتها وهي تقول للمركيز:

ـ "أرأيت يا أبتي كيف خلع الشفق على البحيرة الصغيرة ثوبًا ورديًّا؟"

وإني لأسمع صوت المسيو دي جوسات، وهو يجيب حين تناول الشاي:

ـ "لقد شهدت ضبابًا كثيفًا يكتنف الحقول، وبردًا يملأ الجو".

وإني لأسمع صوت الكونت أندريه يشترك في الحديث:

ـ "نعم، ولكن ما أجمل الصيد غدًا!"

ـ ثم يلتف إليّ ويقول:

"أتصطاد يا مسيو جرسلو؟"

فأجبته: "كلا، يا سيدي".

فسألني ثانية: "أتركب الخيل؟"

ـ "ولا هذا".

فتضاحك ثم قال: "إني لأرثي لحالك. فالصيد والخيل، هما، بعد الحرب، السلوتان اللتان أتعشقهما من كل قلبي".

ولا يدل هذا الحوار على شيء. بل لا يكشف لك عن الباعث الذي بعثني على أن أعد أندريه دي جوسات مخلوقًا على غير شاكلة الذين عرفتهم جميعًا. وما لبثت أن صعدت إلى غرفتي، حيث اشتغل أحد الخدم بفتح حقيبتي، حتى اتجه فكري إليه أكثر مما اتجه إلى أخته الرائعة. ولما جلسنا إلى المائدة لتناول العشاء، وفي قضاء

وقت السهر، لم تكن مشاهداتي تنصب إلا عليه. على أن دهشتي حيال ذلك الرجل، المملوء رجولة، الفياض عزة وكبرياء، إنما كانت تنبعث من واقعة بسيطة. فلقد شببت وترعرعت في بيئة عقلية بحتة، لا تقدير فيها لغير العقل. وكان لداتي في المدرسة، والذين هم في طليعة المتفوقين، ضعاف البنية، نحاف الأجسام مثلي، فما كانوا يتنزلون لأن يعيروا أي التفات لأولئك المعتزين بقوتهم البدنية الذين يتخذونها ذريعة للأعمال الوحشية. وكان أساتذتي الذين أوثرهم بحبي وتقديري، وصحاب أبي، ممتازين بالقوة العقلية لا الجسمانية. وكنت كلما تمثلت أبطال الروايات والقصص، تمثلتهم أقوياء العقول لا الأبدان. وكان الكونت أندريه، وقد جاوز الثلاثين من عمره، يمثل التفوق البدني. صور لنفسك ربعة في الرجال، شديد الأسر، متين العضلات، مفتول الساعدين عريض المنكبين، ذا حركات تشف عن القوة والمرونة معًا، ووجه يتدفق الدم في جوانبه، وجبهة عالية تكسوها شعور سوداء، وشارب في لون شعر الرأس، فوق شفتين مطبقتين ثابتتين، دليل الإرادة الحديدية، وآية العزيمة الجبارة، وعينين سوداوين، وأنف أقنى، كل هذا يخلع على صاحبه صورة الطير الجارح. ولو تمثلت الإرادة لكانت ذاك الرجل. فهو الحركة مجسمة. وإنه ليبدو، كأن هذا الضابط الذي وقف حياته على التمرينات البدنية، وأصبح على تمام الأهبة لكافة أعمال البسالة والإقدام، لم يختل التوازن فيه بين التفكير والإقدام، فهو إذا اعتزم أمرًا لم يتردد، ولم

يتراجع ولقد رأيته يمتطي صهوة جواده فيأتي بالعجب العجاب، ويضع ورقة من أوراق اللعب على حائط، ثم يقف بعيدًا عنها ثلاثين خطوة ويحشو مسدسه بالرصاص، فيصيب الهدف بعشر رصاصات متتالية، ورأيته يقفز الحواجز كما يصنع الرياضي المحترف ويثب فوق المائدة غير معتمد إلا على يديه.

ولقد علمت أنه في أثناء الحرب، ولما يبلغ السابعة عشرة من عمره، التحق بالخدمة العسكرية، واندمج في صفوف الجيش المحارب، وخاض غمرات الحرب، وقاسى أهوالها، وكان يبث الشجاعة في قلوب الجند المدربين.

وإنه ليكفيني أن أتعرفه، في تلك الليلة الأولى، لدى تناول العشاء يأخذ طعامه في سكون، ويأكل بشهية، شأن من تفيض الحياة في جسمه شديدة قوية.

وكان صموتًا قليل الكلام، وإذا تكلم، فبذلك الصوت المليء الدال على الحيوية والرجولة، وبتلك اللهجة الثابتة الرزينة الدالة على تعود صاحبها الأمر وألفه الطاعة، فآمنت أني حيال إنسان، يختلف عني، ولكنه في طرازه، قد شارف الكمال، ودنا من الغاية. وإن أنسَ لا أنسى ليلة رأيت المركيز يبدأ لعب الورق مع ابنته، بعد الفراغ من تناول طعام العشاء، وأنا أتحدث إلى المركيزة، وأنظر خلسة إلى الكونت أندريه، وهو يلعب "البليارد" وحده. فما راعني إلا أن أرى جسمًا مرنًا

قويًّا، وشابًّا قد وضع "سيجارا" في جانب فمه، يدفع الكرات بمهارة تبعث على الإعجاب. فكنت، وأنا تلميذك الذي يعتز بفكرته، أتتبع، فاغر الفم مشدوهًا، حركات هذا الشاب، وهو مقبل على هذا النوع من الرياضة، وقد فاضت نفسي إعجابًا يشوبه الحسد، فكان شعوري إزاءه شعور الراهب المتأدب الذي يجهل الرياضة البدنية، إزاء فارس في القرون الوسطى شاكي السلاح يختال في درعه.

وإني، حين أقول الحسد، أتوسل إليك أن تتفهمني، فلا تعزو إليّ دناءة برئت منها طوال حياتي. فما حسدت. لا في تلك الليلة، ولا فيما تلاها، الكونت أندريه، على لقبه، أو ثرائه، أو مزية من تلك المزايا الاجتماعية التي توافرت لديه بينا أنا محروم منها. وما شعرت حياله بذاك الحقد الذي ينطوي عليه الرجل للرجل كما جلوت هذا الشعور في الصفحات الرائعة التي أُنشِئُها عن الحب. فلقد كانت أمي تدللني وأنا طفل صغير، فتملأ سمعي بأني وضاء المحيا. وتبرَّع لي بتلك الشهادة نسوة سواها. وما كنت أخدع عن نفسي، وإن رأيت أن ليس في ملامح وجهي ما ينبو النظر عنه. وأصارحك بذلك، لا بدافع العجب والخيلاء، ولكن لأدلك على أن الخيلاء لم تكن مثار ذاك التنافس الذي جعل مني، منذ الساعة الأولى، خصمًا، بل عدوًّا لدودًا للكونت أندريه، دون أن يشعر هو بتلك الخصومة، أو ذاك العداء. وأكرر أن ذلك التنافس كان يمازجه الإعجاب والكراهية معًا.

وكلما أمعنت في التفكير، بدا لي أن الشعور الذي أحاول أن أرسمه لك إنما هو ميراث خلفه لي الماضي، فانحدر في نفسي، وقر في أعماق العقل الباطن. فلقد بدا لي أن أسائل المركيز، وكنت أعلم أن تساؤلي يداعب كبرياء النبلاء في نفسه، عن محتد أسرة "جوسات راندون"، فتجلى لي أنهم من سلالة أقوام غزاة فاتحين، على حين أن الدم الجاري في عروق هذا الذي انحدر من أصل لوريني، ومن سلالة مزارعين، والذي يخط لك تلك السطور، إنما هو دم قوم مغلوب على أمرهم. أجل، هو دم الأجداد الذين عاشوا تحت أثقال الاستعباد، واحتملوا نير الاستبداد، طوال دهور، ثم سرى إلى الأحفاد. حقًّا إن الفارق بين عقلي وعقل الكونت أندريه لهو كالفارق بيني وبينك، يا أستاذي العزيز، لا بل إن الفارق أبعد. فأنا أستطيع أن أفهمك. وأتحداه أن يفهم طرفًا من تدليلي، لا بل أن يفهم شيئا من هذا التدليل المنطقي الذي أسوقه الآن عن منشأ العلاقات بيننا. ولئن آثرت الصراحة لما قلت: إلا أنني أنا متحضر، وهو متبربر.

ولعل منشأ خصومتنا، الوراثة لا الحسد. فالأخلاق لا تتكون إلا على مدى الأجيال. ولقد كان كل شيء يحفر بيني وبين الكونت أندريه هوة عميقة مظلمة. على أنه ما كان يحفل بي إلا كما يحفل نبيل من النبلاء بشاب التحق بوظيفة مدرس في أسرته.

وطلب الكونت أن أتوجه إلى مكتبه لنتحدث قليلًا. فلم يأبه لشأني، وتبينت في الحال أن الغاية التي يرمي إليها، ليست توثيق الروابط بيننا،

وإنما هي أن يدلي إليّ بآرائه الخاصة في مهمتي كمدرس. وقد اتخذ لمسكنه جناحًا في القصر، مؤلفًا من حجرة للنوم، وأخرى للزينة وثالثة للاستقبال، بها مقعد مستطيل، وبضعة كراسي، ومكتب كبير. فأما الحوائط فقد ازدانت بالأسلحة من كل طراز. فهذه بنادق مراكشية قد جيء بها من طنجة. وتلك سيوف وطبنجات من عهد الإمبراطورية الأولى. وما لبثنا أن دخلنا الغرفة حتى لفت الكونت نظري إلى خوذة جندي روسي. ثم أشعل غليونه، وتناول المصباح وألقى الضوء، على طرف الخوذة النحاسي، وهو يقول لي: "إني لعلى ثقة بأني قد جندلت صاحب تلك الخوذة. وأنك لا تستطيع أن تقدر مبلغ شعور الغبطة حين يصوب الجندي بندقيته إلى عدوه، ويسدد الرماية، فيخر صريعًا، ثم يهتف من أعماق قلبه: "لقد نقص عدد الأعداء واحدًا".. كان ذلك في قرية لا تبعد كثيرًا عن مدينة "أورليان"... وكنت أقوم بالحراسة، على طرف من زاوية المقبرة.. وأشرفت على الحائط، فلمحت رأسًا يمر، وينظر، ثم تمثَّلت شبحًا يبدو.. وأكبر ظني أن جنديًّا ساقه الفضول، فأقبل يتجسس ماذا نصنع.. وما أحسبه قد رجع ليقص ما قد رأى".

ثم وضع الكونت المصباح، وبعد أن ضحك لتلك الذكرى ملء فمه، عاود وجهه مظهر الخطورة والجد. ولقد اعتقدت أن الواجب يقضي، من ناحية الأدب واللياقة، بأن أتناول جرعة من كأس تفضل الكونت بتقديمه إليّ، فيه مزيج من الكحول والمياه الغازية، كرهته نفسي، وتقززت منه.

وقال الكونت: "لقد حرصت، يا سيدي، على أن أخاطبك منذ هذا المساء، لأكشف لك عن خلق "لوسيان" وأدلك على الوجهة التي ينبغي أن توجهه إليها. فلقد كان المدرس الذي تحل اليوم محله، رجلًا طيب القلب، على أنه كان ضعيفًا متراخيًا. ولقد أيدت ترشيحك، لأنك شاب، والشاب أصلح لأداء المهمة التي تناط به إزاء لوسيان.. فالتعليم، يا سيدي، ليس شيئًا في نظري، بل قد يكون في بعض الأحيان أسوأ من لا شيء، إذا كان يفسد الأفكار. إن أعظم شيء في هذه الحياة، لا بل إن الشيء الوحيد، هو الخلق".

ثم وقف عن الكلام، وكأنما كان يسألني رأيي، فأجبته بعبارة مبتذلة، ولكنها عززت وجهة نظره.

فمضى يقول: "حسن جدًّا. لقد. تفاهمنا. إنك لا ترى في الوقت الحاضر بفرنسا، قومًا مثلنا؛ يؤثرون الجندية على كل صناعة أخرى. وطالما كانت فرنسا في الداخل، بين أيدي الأوغاد والأنذال، وكان حقًّا علينا، في الخارج، أن نهزم ألمانيا، فلم يبق لنا إلا مكان واحد يليق بنا وهو "الجيش"... وإني أحمد الله على أن أبي وأمي يشاطراني تلك الآراء وسيكون لوسيان جنديًّا، والجندي ليس بحاجة إلى علم واسع غزير، مهما يبدئ ويعيد أبناء اليوم... فإذا توافر له الشرف، وثبات الجنان ورباطة الجأش، وقوة العضلات، وتوج كل ذلك بحب فرنسا العميق، كان خير جندي يستبسل في الدفاع عن وطنه، ويلذ له

الاستشهاد في سبيل بلاده، ولقد عانيت، أنا، كل تعب، واحتملت كل عناء، في سبيل الحصول على شهادة الدراسة الثانوية... أريد أن أقول لك، إن هذا العام الذي يقضيه "لوسيان" في الريف، ينبغي أن يكون عام الرياضة في الهواء الطلق، واستنشاق النسيم، وأن تروضه على أن يخشوشن في حياته، على أن تكون الدراسة مقصورة على مجرد المحادثة. وإني ألفت نظرك بنوع خاص إلى أحاديثك معه، فالواجب عليك أن تراعي الجانب العملي في الأشياء، وأن تشيد بذكر المبادئ. وأن فيه بعض العيوب التي يجب أن تدرأها من الآن. ستراه طيب القلب، ولكنه رخو، فينبغي أن تروضه على احتمال المصاعب. حتم عليه أن يخرج كل يوم، وأن يمشي ساعتين أو ثلاثًا. وهو لا يضبط مواعيده، فأكبر همي أن يصبح في مثل دقة "الكرونومتر". وتراه يرتجل الكذب ارتجالًا. وعندي إن الكذب هو أقبح الرذائل جميعًا. إني لأغتفر كل شيء يأتيه الإنسان حتى الحماقات. فأنا نفسى قد ارتكبتها. على أني لا أغتفر فرية على الإطلاق... لقد بلغتنا يا سيدي، عن طريق أستاذ والدي القديم، معلومات قيمة عنك، وعن حياتك لدى السيدة والدتك، وعن كرامتك واستقامتك، حتى إنَّا لنعول على أثرك الطيب. وإن عمرك ليسمح لك أن تكون من "لوسيان" في مركز الزميل والمعلم معًا، والقدوة الصالحة، والأسوة الحسنة، هما خير وسائل التعليم جميعًا. قل للجندي إن من الشرف أن تستقبل الموت، فيصغي إليك دون أن يفهمك. لكن سر أمامه مستبسلًا تراه أعظم منك

استبسالًا... أما أنا فعما قريب ألتحق بفرقتي، وسواء أكنت غائبًا أم حاضرًا، فإنك تستطيع أن تعول على معاضدتي، في كل ما يجعل هذا الغلام رجلًا يتفانى في خدمة وطنه ومليكه، إذا قدر للملكية أن تعود.

ولم يكن في تلك المحاضرة التي نقلت إليك صورة صادقة منها، ما يدهشني. فمن الطبيعي أن بيتًا يضم أبًا شيخًا مختل الشعور، وأمًّا لا تصلح إلا لإدارة شؤونه، وبنتًا شابة ذات حياء وخفر، تكون دفة القيادة بيد الابن البكر، فيخاطب المدرس، يوم مقدمه، بمثل تلك اللهجة التي خاطبه بها. وكان طبيعيًّا أن جنديًّا نبيلًا، نبت في بيئة النبلاء فاعتنق مذاهبها؛ وشب وسط الجندية فتشبع بآرائها، يخاطبني في لهجة الجندي النبيل. وإنك يا أستاذي العزيز بما فيك من قدرة على الإحاطة بالطبائع البشرية، وبما أوتيت من قوة على ترتيب النتائج على المقدمات، وربط المسببات بالأسباب، واستخلاص الرابطة المحتومة بين المزاج والبيئة من جانب، والتكوين العقلي من جانب آخر، خليق أن ترى في الكونت أندريه شخصية تسترعي الأنظار.

وفيم كان إعدادى لكراستي إن لم يكن لجمع الوثائق التي من هذا الطراز عن الطبيعة البشرية؟ والآن آمنت أن فلسفتي لا تجري مجرى الدم في عروقي، والنخاع في عظامي، فإن تلك المحاضرة التي تلتئم والمنطق، وتتمشى وطبائع الأشياء، بدل أن تدخل السرور على قلبي، قد نكأت جرح الكراهية في صدري، إذ شعرت بعزة نفسي

المهيضة، وكرامتي الجريحة، وأحسست أني الضعيف المهزول، أمام القوي القادر. حقًّا لم أقم وزنًا لأي فكرة أدلى بها الكونت. فلقد كانت آراؤه كلها في اعتباري حماقات، وبدل أن أزدري تلك الحماقات، وأوليها الإغفال، شأني بها في أي موقف آخر، أحسست بمقتي إياها وهي تتحدر من فمه. فأما عن صناعة الجندية التي تَغَنّى بذكرها فهي عندي: أتعس الصناعات جميعًا، لما فيها من وحشية وضياع للوقت، ولشد ما اغتبطت لأن كنت ولدًا لأرمل معافى من بربرية الثكنات، وبأساء النظام العسكري. وأما بغض ألمانيا، فقد آليت أن أستله من صدري، وأستأصل شأفته من قلبي، مدفوعًا بالاعتقاد أنه وهم من أسوأ الأوهام، ومسوقًا بالتقزز من رفاقي الذين كنت أراهم يندفعون في طريق الوطنية الحمقاء، وإعجابًا، بل تقديسًا لشعب أنجب "كنت" و"شوبنهور" و"لوتز" و"فجنر" و"هلمهولتز" و"فوندت". وأما عن العقيدة السياسية فإني لأشعر في قلبي الاحتقار لكافة الفروض التي يلبسها أصحابها تارة ثوب الشرعية، وطورًا حُلَّة الجمهورية، وأخرى رداء القيصرية، زاعمين أن في وسعهم أن يرتجلوا النظم السياسية للشعوب ارتجالًا. ولكم كنت أشاطر صاحب "المحاورات الفلسفية" أحلامه في وجوب أن يكون على رأس الشعب طائفة من الحكماء، وأن يستبد بالأمر فيه فريق من علماء النفس، والاقتصاد، ووظائف الأعضاء، والتاريخ. وأما عن الحياة العملية فما كانت في اعتباري يومًا إلا الحياة المنتقصة، فقد كنت أعد العالم الخارجي مجرد ميدان

تنشط فيه الروح الطليقة لأجراء التجارب، واستجماع الانفعالات. وأما ازدراء محدثي الكذب فقد عددته إهانة لحقت بي، على حين قد أحرجتني وكدرتني تلك الثقة بخلقي المرتكزة على صورة ليست صورتي في شيء. فالحق أن التناقض كان صارخًا لذاعًا. فلقد عددت نفسي على مثال الصورة التي رسمها لي صديق أبي القديم، وكان من دواعي غبطتى أن يحسبني الناس على ذاك المثال، وثارت ثائرتي حين رأيت الكونت أندريه لا يأخذ حذوه مني.

وإذا كنت قد أسهبت في الكلام عن الليلة التي أعقبت قدومي إلى القصر فليس لأنها كانت ذات نتائج مباشرة، فقد خرجت بعد أن أكدت للكونت أندريه أن وجهة نظري بشأن توجيه أخيه الصغير، تطابق وجهة نظره، ثم صعدت إلى غرفتي فأخذت نفسي بتسجيل تلك الأقوال في كراستي التي أعددتها من قبل، معقبًا عليها تعقيبًا يشف عن الزراية والاحتقار.

ولقد ترددت على ذاك الشاب الذي يكبرني بتسع سنوات أو عشر طوال خمسة عشر يومًا، فزاد يقيني بسموي عليه. وما كنت أوثر أن أكون الكونت أندريه، بلقبه، وثرائه، وتفوقه الجسماني، وأفكاره، ولو أعطيت ثمنًا لذلك، إمبراطورية عظمى.

ولقد وضعت الأقدار في طريقي فتاة تملأ العين جمالًا، فكان من الطبيعي لشاب في مثل سني، أن يسعى لأن يروق في عينها. على

أني كنت متوفرًا على الدراسات العقلية، فما كان يمكن أن تجوز تلك الرغبة بقلبي، قبل أن تجوز بعقلي. وإذا كنت قد خضعت لجمال تلك الفتاة، فقد خيل إليَّ، أن مبعث خضوعي العقل لا الشعور. على أني كنت أناجي نفسي فأقول: "لقد شغفتني شارلوت حبًّا، لأنها كانت بارعة الجمال. سامية الشعور، نبيلة العواطف، ولأني كنت شابًّا. وإذا رحت أنقب عما أبرر به ذاك الحب، فما ذاك إلا لأني كنت معتزًّا بأفكاري بحيث أكبر أن أحب على الصورة التي يحب بها غيري من الناس". ولكم كانت تلك المناجاة تروح عن قلبي!

وإني لأرثي لنفسي بدل أن أنظر إليها نظرة التقزز والاشمئزاز، كلما ذكرت أن الفكرة اختمرت في رأسي، وطفرت من رأسي إلى كراستي، ثم وثبت من كراستي إلى دائرة التنفيذ العملي في ظلام الحوادث وا أسفاه! أجل، لقد نبتت الفكرة ثم أزمعت تنفيذها، في دم بارد، وضمير جامد! وأية فكرة؟ ان أخدع تلك الفتاة عن عفافها، دون أن أتورط في حبها، لأشبع طلعة العالم النفساني، ولمجرد اللهو واللعب، ولمحض العبث بنفس حية، ولأدرس العواطف في عالم الحقائق، بعد أن درستها بين عالم الكتب، بل لأضيف إلى ثروتي العقلية تجربة جديدة.

نعم، ذلك ما أردت، وما كان في طوقي ألا أريده، فقد كانت وراثتي تدفعنى في طريقه دفعًا، وتربيتي تسوقني إليه سوقًا، أضف إلى

ذلك كله، انتقالى إلى تلك البيئة الجديدة التي قذفت بي إليها الأقدار، والخصومة المشبوبة النيران بيني وبين أخيها الكونت أندريه.

وكم كان خليقًا بتلك الفتاة، مثال الطهر والعفاف، أن تلقى فتى غيري، فما أنا إلا أداة تفكير عقلي لا ينبض فيها حس، ولا يهتز فيها شعور، ولا تخفق عاطفة! وإني كلما ذكرت ذلك، تمزقت نياط قلبي، أنا الذي وددت دائمًا أن يكون في مثل جفوة الطبيب، ودقة تشخيصه. حقًّا، لقد لاحظت لأول ليلة رأيتها، أنها لم تكن المثل الأعلى في الجمال. على أنها كانت حلوة الملامح، رشيقة الحركة، لا تراها حتى تشعر بحالتها العصبية. نعم، لقد كانت شارلوت مثال الشعور والحساسية حتى لتتجلى تلك الحساسية في هزة يديها وشفتيها، شفتيها اللتين تفيضان نورًا سماويًّا. وكان وجهها يشف عن قوة الإرادة، ونظراتها تنم عن "الفكرة الثابتة".

ولقد لمست بيدي طيبة قلبها، وكان الفضل في ذلك راجعًا إلى "لوسيان" الصغير. فقد روى لي أنها رجته، غير مرة، أن يسألني عما إذا كان يعوزني شيء في غرفتي. وهذا وإن بدا بسيطًا، إلا أنه بالغ الأثر في نفسي، فلقد كنت أشعر بالوحدة في ذلك البيت الذي لم يعرني أحد فيه التفاتًا. فما كنت ألمح المركيز إلا وقت تناول طعام الغذاء، متدثرًا في ثوبه، يخوض حديث صحته، وحديث السياسة معًا. وكانت المركيزة مَعْنِيّةٌ بتوفير أسباب الراحة له في القصر، وكان لها

حديث ضافي الذيول والأذناب مع تاجر سجاد قدم من "كليرمونت". فأما الكونت أندريه فكان يمتطي صهوة جواده في الصباح، ويخرج للصيد بعد الظهر، فإذا أقبل الليل، أخذ في تدخين "سيجاره" دون أن يلقي إليّ بالًا، أو يوجه إليّ خطابًا. وأما المربية والمتدينة، فقد كانتا تنظران إلى نظرات مريبة، وكان تلميذي كسولًا متخلف الذهن، ولم تكن له من فضيلة، إلا أنه ساذج، يسترسل إلى بثقته، فيفضي إلى بكل ما أريد أن أعلمه عن نفسه وعن ذوي قرباه. وما لبثت أن تبينت منه أن إرادة الكونت أندريه كانت الباعث على إقامة الأسرة في ربوع الريف هذا العام فما كان الأمر مثارًا لدهشتي، إذ أحسست، لأول وهلة، أن الكونت أصبح رأس العائلة، وصاحب الأمر والنهي فيها. ولقد علمت أنه شاء، في العام الماضى، أن يزوج أخته من أحد رفاقه، واسمه المسيو "دي بلان" فأبت شارلوت، وسافر هو إلى "تونكين". ولقد علمت... لكن ما جدوى هذه التفصيلات؟ وفي حصتي التدريس اليوميتين، كنت ألقى كل عناء لأحمله على الالتفات. فإذا جلس على كرسيه في مواجهتي، إلى الجانب الآخر من المكتب، ينظر إليَّ، وهو يسود الصفحات بخطه السيئ الرديء. وكان يتبين في وجهي أي أثر للذهول. وما لبث أن شعر بفطرته أنه كلما حدثني حديث أخيه أو أخته ملت به الدرس. وما لبثت أن تبينت من ذاك الفم البريء، أن البيت الذي أحيا فيه غريبًا، يضم جوانحه على إنسانة تعنى بسعادتي وتفكر في أمري. ولقد كنت أشعر بالحاجة إلى أمي، وإن غالبت ذاك

الشعور في نفسي، وأكبر ظني أن الحاجة إلى العطف والحنان هي التي استرعت انتباهي إلى الآنسة شارلوت.

ولقد تكشفت لي، فوق طيبة قلبها، عن تعشقها للخيال. وما كان مبعث ذلك الشعور، قراءة الروايات، بل كان وليد حساسية مرهفة. وكانت في ذلك على النقيض من أبيها وأمها وأخويها. وما تبينت طبيعتهم، حتى نالها ألم ممض. وما كانت تبدو لهم، بل ما كانت تراهم إلا لمامًا. وكان رأيها فيمن أحبتهم صادرًا عن وحي قلبها، وإذا رأيتها حسبتها زائفة الشعور أو أليفة ملق ورياء، قالت يومًا لأمها، وهي المادية العادية التفكير: "ما أرق عاطفتك يا أمي"، وقالت يوما لأبيها وهو مثال الأنانية البالغة: "ما أطيب قلبك يا أبتي"، وقالت يومًا لأخيها وهو من عرفت: "إنك لتدرك كل شيء يا أخي". معتقدة ما تقول.

على أن ذاك الوهم الذي كانت تضطرب في سجنه تلك المخلوق المتقدة ذكاءً، الفياضة رحمة وحنانًا، قد جعلها فريسة للعزلة الأدبية المطلقة، محرومة من توافق الأخلاق، إلى درجة تؤذن بأفدح الأخطار. لقد كانت تجهل نفسها، كما تجهل سواها. وأذنت تلك الزهورة بالذبول وهي في إبان نضارتها، إذ فقدت من يتفق وإياها في الشعور. فلقد أحسست لأول مرة خرجنا معًا للرياضة، أنها هي وحدها التي تشعر حقيقة بجمال الريف وروعته، بربوعه الجميلة،

وتلك البحيرة الصغيرة، وما يحيط بها من غابات، والبراكين النائية، وسماء الخريف البديعة الرائعة. وما أن راعها جمال الطبيعة حتى ألقت بنفسها في ثنايا صمت عميق، يخيل إليك أنها فنيت في بهجة الوجود. فقد كانت لها خاصة الشعراء، والعاشقات، تفنى فيما يمس قلبها، ويهز عواطفها، سواء كان الأفق الذي تكسوه السحب، أم الغابة الصامتة الذابلة الأوراق، أم القطعة الموسيقية التي توقعها مربيتها على أوتار "البيان"، أم القصة المؤثرة التي أمامها. لمست التباين بين الكونت الذي لم يخلق إلا لخوض غمرات الحرب، وبين تلك الإنسانة التي خلقت حنانًا ورحمة، تنطبع على شفتيها ابتسامة جمعت بين الترحيب وبين الحياء والخفر.

سأفضي إليك بالحقيقة كاملة، لأني ما كتبت لأرسم لنفسي صورة خداعة، بل لأصورها حقيقة ماثلة، وما بي من حاجة لأن أوكد أن الرغبة في حمل تلك الإنسانة الرائعة على حبي، بعد إذ بتُّ أشعر بالغبطة كلما أظلتني وهي سماء، كان مبعثها التباين بينها وبين أخيها. ولربما باتت نفس تلك الفتاة ميدان قتال بيني وبين أخيها، تشب فيه حرب الكراهية التي أصارتها الأيام حقدًا متأججًا. نعم، ربما انطوت تحت رغبتي في الإغراء الشهوة الجامحة في إذلال كبرياء هذا الجندي، هذا النبيل، بأن أجرحه في أعز ما لديه في هذا العالم. حقًّا، إني لأومن بيني وبين نفسي، يا أستاذي العزيز، أن ذلك الذي أفضي به إليك، بشع شنيع، لكني لست تلميذك إن لم أعطك تلك الوثيقة التي

تعرف بها دخيلة قلبي. وأما بعد، فلن تكون تلك الصورة البغيضة، إلا ظاهرة لا بد منها، كغيرها من الظواهر، كروعة شارلوت، وهمة أخيها، ونفسيتي الغامضة التي دق فهمها حتى عليَّ، وتحتجر ظلامها حتى في عينيَّ!

الأزمة النفسية الأولى

ما زلت أذكر جيدًا ذلك اليوم الذي اختمرت فيه برأسي فكرة إغراء أخت الكونت أندريه، وخداعها عن عفافها، لا كرواية خيالية، بل كحقيقة واقعة. فبعد أن أقمت بالقصر شهرين متعاقبين، عدت إلى والدتي أقضي فترة العيد. وما رجعت من "كليرمونت" إلا منذ أسبوع. ولقد تساقط الثلج يومين كاملين. ولا شك أن برد الشتاء في جبالنا قارس، وليس أدل على جنون مسيو دي جوسات، من إصراره على الإقامة في ربوعها، واحتمال العيش في تلك الأرض المقفرة التي تجتاحها العواصف الثلجية بين آونة وأخرى. وحقًّا أن المركيزة كانت تحرص على توفير أسباب الراحة في البيت مع القصد في النفقات اليومية. ومهما كان ذلك الشتاء شديد الزمهرير، فقد كانت تقضي فيه أوقات مشرقة. فإذا كان النهار مكفهرًّا، أقبل المساء فإذا السماء صافية الأديم، وإذا الربوع تتلألأ بأضواء السماء. وكان يومًا عبوسًا قمطريرًا يوم عقدت العزم على أن أخدع شارلوت عن عفتها. وكأني أرى الآن البحيرة وقد كسا الثلج وجهها، وتحت طياته تنساب مِياهها في هوادة ورفق. وكأني أرى قمم الجبال متوهجة بالثلوج، وأشجار الغابة وقد اجتمع لها لون الثلج وأديم السماء. وإن ذكريات لتثور في نفسي، من

تِلكم الذكريات التي تنحدر في أعماق النفس، ثم تهجع حتى توقظها الحادثات. فكأني أرى القطيع يسوقه الراعي يتبعه كلبه. نعم، لكأني أرى تلك الربوع جميعًا، والأشخاص الأربعة الذين كانوا يتريضون في الطريق المفضي إلى "فونتريد" وأولئك هم: الآنسة "لارجكس" والآنسة شارلوت، وتلميذي، وأنا نفسي. وكانت الآنسة شارلوت، في ثيابها وفرائها، تملأ العين روعة وجمالًا. وقد بدا عليها، كأنها نشوى بذاك النسيم، بعد طول احتجابها في القصر. وما لبثت أن تورَّد خداها. وكانت تغوص قدماها في الثلج فلا تكاد تترك أثرًا. وأبرقت أسارير وجهها حين شهدت جمال الطبيعة، وَتَهلَّلَتْ بشرًا حين رأت روعة الكون، وتلك ميزة اختصت بها القلوب الساذجة الغضة التي لم يعرها الجفاف والتحجر من الاشتغال بالتدليل المنطقي، والنظريات المجردة، والمطالعات الدائمة. وكنت أسير إلى جانبها وهي تسرع الخطا فما لبثنا أن تجاوزنا الآنسة "لارجكس" التي كانت تسير الهوينا. فأما الغلام فكان تارة يتقدمنا، وطورًا يتخلف عنا، ومرة يقف، وأخرى يعدو. وبينا لوسيان وشارلوت في سرور ومرح، كانت ترتسم على وجهي سحابة من الكآبة، ويحتبس لساني عن الكلام. أفكان مبعث ذاك الشعور، الحنق الذي يملأ صدر الإنسان، حين يلمح السرور بجانبه، ثم لا يستطيع أن يساهم فيه بنصيب؟ أم كان ذلك شروعًا في تنفيذ الخطة المدبرة، للسطو على عفافها، بأن أسترعي نظرها إليّ، وأشعرها بالفارق بين فرحها وترحي؟ ومهما يكن من شيء، فقد

لبثت طوال نزهتنا ترسل عبارات الإعجاب، بروعة الطبيعة وجمالها، وكأنما كانت تدعوني لأن أشاطرها شعورها، فما كنت أجيبها إلا بكلمات مقتضبة، وأنا الذي ألف التحدث إليها فأسرف في الحديث ولا أقتصد. فلمحت سحابة الحزن التي تظلل وجهي. وأعادت البصر كرتين، وفي فمها سؤال حائر يتردد، ثم اكفهر وجهها، بعد أن كان متهللًا. فانحدر مرحها إلى مستوى انقباضي، وَاسْتَطَعتُ أن ألمح في صفحة ذاك المحيا، الطفرة من الشعور بجمال الطبيعة إلى الإحساس بآلامي. وظلت تغالب هذا الإحساس حتى غلبها، فسألتني هيابة مترفقة:

ـ "أتشكو ألمًا يا مسيو جرسلو؟"

ـ فقلت لها: "كلا يا آنسة".

ـ فعاودت السؤال: "هل أساء إليك أحد؟ فإني أراك على غير ما ألفت من عادتك".

ـ فأجبتها: "لم يسئ إليّ أحد. ولكن هناك ما يبعث على الكآبة، فاليوم ذكرى حزني الذي لا أستطيع الإفضاء به".

فنظرت إليّ مرة أخرى. فلمحت في عينيها اضطراب عواطفها، كما تلمح حركة الساعة خلال صندوق من البلور. وكدت ألمس آثار قلقها حين أحست اضطرابي الذي أذهلها عن جمال الربوع. وإني لأتمثلها الآن، وقد اطمأنت حين علمت أن ليس لي عندها ظلامة. وكأني أراها

وقد أمضَّها حزني، فتطلعت إليّ لِتعرف الأسباب والبواعث ولكن لم تجترئ على مواجهتي بالسؤال، واجترأت بتلك الكلمة "معذرة إذا كنت قد سألتك". ثم لزمت الصمت. وباتت تلك اللحظات القليلة كفيلة بأن تكشف لي عن الحيز الذي أشغله من ذهنها. وكان خليقًا بي، حيال ذلك الخلق السامي، والشعور العالي، أن أتوارى خزيًا وخجلًا من كذبي، فقد ارتجلت الكذب ارتجالًا، حين زعمت أن ذلك يوم ذكرى حزني العظيم. نعم، لقد تبرعت بالاختلاق تبرعًا، ولشد ما كانت دهشتي كلما ذكرت جنوحي إلى اختراع الأكاذيب. ففيم صور لي خيالي أن أتبدَّى أمامها في مظاهر الألم، التي صيغت من خيال الشعراء، وثياب الحزن التي حيكت من نسيج الأكاذيب، على حين أن حياتي، بعد موت أبي، كانت راضية مرضية وهل كان الغرور هو الذي دفعني لأن أكذب كما يكذب بعض الأطفال دون باعث أو مصلحة؟ أم ظننت أن تلك الكآبة المصطنعة، وذلك الحزن المتعمد، وذاك المظهر المسرحي، كل هذا كفيل بإحكام الشرك الذي أعددته لاصطياد أخت الكونت أندريه؟ لست أقدر على وجه التحديد البواعث التي كانت تضطرب في نفسي أثناء نزهتنا، حقًّا إني لم أتبين تمامًا أثر حزني المصطنع، وكذبي المرتجل، على أني ما لبثت أن شعرت بذاك الأثر حتى اعتزمت المضي إلى النهاية، لأرى ماذا تكون خاتمة المهزلة التي بدأت بتمثيلها في يوم مشرق من أيام شهر يناير، على مسرح من مسارح الطبيعة كان خليقًا بأدوار غير تلكم الأدوار.

لقد شعرت من ذاك الحين أني أوحي إلى قلب شارلوت أصدق العواطف وأكرمها. فما كانت السياسة النفسية التي أخذت نفسي بتطبيقها إلا عملًا بغيضًا ممقوتًا لا يصدر إلا عن ذهن فتى ناشئ في علم القلب. وما كنت أدري كيف أتزوَّد من شذى تلك الأزهار النابتة في تلك النفس الكريمة. وما كان عليّ ألا أتذوق هاتيك العواطف التي طالما تعطشت إليها، ووددت أن أنهل من مواردها العذبة، لأحيا حياة العاطفة التي تتمشى مع حياتي العقلية. ولكني قد أسرفت في التفكير حتى تحجر قلبي. وأحببت أن أخضع نفسًا قد رفعت راية التسليم. ولجأت إلى المواربة حيث ينبغي أن أكون صريحًا. وعمدت إلى الدوران واللف، حيث يجب أن أكون بسيطًا، واليوم قد عز عليّ حتى هذا العزاء الرخيص، فلا أستطيع أن أقول لنفسي إني قد وضعت مأساة حياتي عن طواعية واختيار، فرسمت مناظرها، وهيأت حوادثها، ورتبت سياقها. فلقد كانت نفسها مسرحًا لتلك المأساة دون أن أدرك من أمرها كثيرًا أو قليلًا، تلك المأساة التي قام الموت والحب بتمثيل أدوارها، وهما يسخران من فلسفتي. وإنما أحبتني شارلوت لبواعث غير تلك البواعث التي ابتدعتها فلسفتي الفجة. ولقد قضيت بعد أن تملكها اليأس، حين تكشفت لها دخيلة نفسي. وفاضت نفسها تقززًا مني، فعلمت ان آرائي لم تهز عواطفها في كثير أو قليل. ولقد حسبت أن ذلك الحب لا ينطوي إلا على مسألة عقلية. فاخطأ حسابي، وأصبحت أمام حب يفيض حنانًا صادقًا عميقًاَ، وأنا

لا أشعر بروعته. فلماذا كنت أغفل بالأمس، عما يتجلى لي اليوم؟ لقد كان من الطبيعي أن تخطئ في تقديري فتاة تهيم في بيداء العواطف، وتحلق في أجواء الخيال. ولقد أضناني الدرس حتى بات مظهري يثير العطف، ويبعث الرحمة في قلوب النساء. وكان لتربية أمي أبلغ الأثر وأعمقه في نفسي، فنشأت وديع الطباع، رشيق الإيماءة حلو الحديث، يحجب تجمل شخصي، سوء حركاتي. وقدمت للأسرة على أني شاب حر النزعة، رضي الخلق. فليس عجيبًا أن تصبح تلك العوامل مجتمعة مثارًا لاهتمام شابة نبيلة العواطف، تشعر بالعزلة في البيئة التي تعيش فيها. وما لمست فيها ذاك الشعور حتى فكرت في استغلاله. ولو أتيح لأحد أن يراني في غرفتي وحيدًا طوال الليلة التي أعقبت تلك النزهة، جالسًا إلى مكتبي، مقبلًا على الكتابة، وعلى كثب مني مجلد ضخم في التحليل النفسي؛ لما آمن أن الذي يراه ليس إلا فتى لم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره، وأن ذاك الفتى يطلق لفكره العنان في سبيل تفهم العاطفة التي يود أن يبعثها، في قلب فتاة بلغت عشرين ربيعًا... ولم تبق في القصر عين لم يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها. وما أحسست إلا وقع أقدام خادم سعى ليطفئ المصابيح. وكانت الرياح تهب على جوانب القصر، ولها شجو الأنين تارة وشدو الألحان طورًا. وكان إرعاد العاصفة وإبراقها يضاعف شعور الوحدة في صدري. وكانت النيران تضطرم في الموقد، في سكون وصمت. وظللت أسطر في كراستي تاريخ يومي. والخطة التي دبَّرتها

لإخضاع الآنسة شارلوت لسلطاني. وأسلمت تلك الكراسة للنيران غداة القبض علي. وما أنس لا أنس أني نقلت إليها العبارة التي كتبتها عن الرحمة في كتابك "نظرية العواطف". وهاك العبارة: "إن ظاهرة الرحمة تنطوي على عنصر عضوي وهي لدى النساء تجاور الانفعال الجنسي". فتوسلت بالرحمة إلى قلب شارلوت. وتلمست طريق حبها من تلك الناحية. وأحببت أن أستغل أولى أكاذيبي التي هزت عواطفها، ثم أحيطها بشباك من نسج الأكاذيب، وان أحملها على حبي من طريق الرثاء لحالي. ولكم كان ذاك الاستغلال الدنيء لعاطفة كريمة في سبيل إشباع شهوة الفضول يتناقض مع الأوهام الشائعة، فلا عجب أن يداعب كبريائي. فبينا كنت أرسم خطة الإغراء، مدعمة بالأسانيد الفلسفية، قدرت ماذا يقول عنها الكونت أندريه، إذا أتيح له أن يرى من أعماق الثكنة العسكرية، ويكشف عن الكلمات التي يخطها قلمي. ولما أزمعت درس عقل المرأة خيِّل إليّ أني "كلودبرنار" أو "باستور" أو واحد من تلاميذهما. أولئك علماء يضعون الحيوانات على المشرحة وهي حية لإجراء التجارب فيها، فما لي لا أشرح النفس الإنسانية كذلك؟

وإذ أردت أن أستخلص النتيجة المبتغاة من الرحمة التي جاشت بصدرها، لم تكن لي مندوحة عن موالاة استشارتها. فتماديت في تمثيل مهزلة الحزن التي ابتدعتها أوهامي، وصاغها خيالي، وأتبعتها بأخرى تدعو للرثاء، وتهيج الرحمة.

وفي الأسبوع الذي أعقب رياضتنا اصطنعت الكآبة اصطناعًا، لا في حضرة شارلوت وحدها، بل أمام تلميذي، علمًا بأنه سيروي حديث ذلك الحزن الذي يملك على مشاعري. فأنت ترى في ذلك الدليل القائم، والحجة الناهضة، على عبث الخديعة والمكر، اللذين رضت نفسي على الاعتصام بهما. أفكانت بي حاجة لأن أزج بهذا الطفل الغرير في مثار تلك الدسيسة؟ وكيف طوَّع لي ضميري أن أدفع به في غمار تلك المأساة وهو الذي عهدوا إليّ بتربيته، وتغذيته بالمبادئ الصالحة، وغرس الفضائل في نفسه؟ وعلام الحب والخديعة، والآنسة شارلوت تثق بي ثقة لا تشوبها شائبة؟ على أن ضلال الوجدان، وتحجر العواطف، قد طوعا لكبريائي أن يفتن في مضاعفة الحبائل.

وكان "لوسيان" يتلقى درسه في حجرة كبيرة أسموها حجرة المكتبة لما احتوت من كتب.

وكانت من بينها دائرة المعارف الكبرى. مما خلَّف منشئ القصر، وقد كان من عظماء النبلاء الذين يميلون إلى الفلسفة، فشيد ذاك الصرح العظيم، في ربوع الجبال، لينشئ ولديه في أحضان الطبيعة، وليطبعهما على غرار "إميل" لما تخيله "روسو" في كتابه عن التربية. وقد علقت صورة مشيد القصر في جانب، وصورة امرأته في الجانب الآخر. فلبثت أتطلع إلى تينك الصورتين، فأسائل نفسي عما كان

يصنعه أجدادي. وكأني أراهم، يدفعون المحراث، يفلح الأرض، ويروون الكروم، تحت سماء اللورين الملبدة بالسحب، كما يصنع أولئك القرويون الذين أراهم يمرون أمام أبواب القصر، ولما اضطربت تلك الخواطر في ذهني. ثارت ثائرة الانتقام في نفسي، وآليت ألا أستقر، أو أبلغ الغاية. ومن عجب، أني وأنا أمقت مذاهب الثورة الفرنسية، وما تنطوي عليه من الخيالات، كنت أشعر بالغبطة في أعماق نفسي، حين أظن أني قد أغري حفيدة ذاك النبيل العظيم، وتلك السيدة العظيمة، بقوة الفكر وحدها على حين أني من عامة الشعب. فأسندت رأسي إلى يدي، وأشعت مظاهر الحزن في أسارير وجهي. علمًا بأن "لوسيان" يرقب حالتي، ولما رآني كذلك توهم أن منشأ حالتي هذه عدم رضاي عنه. وفي ذات صباح اجترأ أن يسألني:

ـ هل أنت غاضب مني يا مسيو جرسلو؟

ـ فأجبته وأنا أربته: "كلا يا بني". وظللت في مظهر الحزن المصطنع والثلج يتساقط على زجاج النوافذ. ولبث يهطل حتى غطى الربوع، ولف الجبال في غلالة من الصمت العميق، وباتت السكينة ترفرف بجناحيها على جوانح القصر. فأعانني حزن الطبيعة على تمثيل حزني. فاسترعيت نظر شارلوت ساعة اجتماعنا. وفي قاعة الطعام قرأت في عينيها آيات رثائها لي والعجب لحالي. وكذلك كانت كلما رأيتها أثناء تناول الشاى. أو طعام العشاء. أو في وقت السمر. إذا لم أسرع نحو

غرفتي بدعوى وجود عمل لا بد لي من إنجازه. وكانت حياتها تجري على وتيرة واحدة. وكان الحديث الذي يملأ سمعها حديثًا معادًا. فلم تستطع أن تغالب الأثر الذي تركه في نفسها حزني المحجب بالأسرار. وبات المركيز فريسة للاضطراب ساخطًا على الساعة التي آثر فيها العزلة. ولطالما لهج بأنه لا يلبث أن يصحو الجو حتى يسارع إلى الرحيل، جاهلًا أن ذلك أمسى ضربًا من المستحيل، فهل نسي أو تناسى أن الرحيل اليوم يكبده عظيم النفقات؟ وأين يذهب؟

وكان يرقب زيارة أصحاب الذين يغدون عليه من "كليرمونت"، وكثيرًا ما كانوا يحضرون لتناول الغداء إذا لم تعقهم رداءة الطقس ووعورة الطريق، وإذا ضاق صدره عمد إلى لعب الورق، على حين أن المركيزة والمربية والمتدينة، كن يتفرغن لمشاغلهن. وبينا كان لوسيان يتصفح كتب الصور كنت أتخير مكاني بحيث تراني شارلوت وهي تلعب الورق مع أبيها. وصحَّ عزمي على أن أتسلط على إرادتها، تسلط المنوم على من يريد تنويمه، واخترت أن أخترع لها قصة تبرر حزني وتوضح مسلكي. ليتم لي الاستيلاء على شعورها.

وأخذت في تلفيق القصة على ضوء مبدأين أوردتهما، في الفصل الذي عقدته عن الحب. فما من شك في أن كتابك وكتاب "أمراض الإرادة" لمسيو ريبو قد أصبحا نبراسًا لحياتي. والآن أرجو أن تأذن لي بإيضاح هذين المبدأين.

فأما المبدأ الأول فيتلخص في أن التقليد هو منشأ المشاعر لدى الكائنات جميعًا. فالحب لدى الإنسان، إذا ترك إلى الطبيعة وحدها، بات كالحب لدى الحيوانات، لا يعدو أن يكون غريزة شهوية، إذا أشبعت الشهوة، لم يلبث أن يزول.

وأما المبدأ الثاني فخلاصته أن الغيرة قد تسبق الحب، وبذلك يمكن أن تخلقه خلقًا في بعض الأحيان. كما يمكن أن تظل بعد زواله.

فلما تجلى لي هذان المبدآن استقر رأيي على أن تكون القصة التي أرويها أمام الآنسة شارلوت، تجمع بين استثارة خيالها، واستفزاز خيلائها. فلقد عرفت كيف أثير عاطفة الرحمة في قلبها، فالآن ينبغي لي أن أضرم نيران الغيرة في صدرها، وأهز شعور الخيلاء في نفسها. فبنيت قصتي على أساس ذلك الرأي القائل: كل امرأة تميل إلى رجل لا يلبث كبرياؤها أن يجرح إذا عرفت أنه يشغل قلب أخرى.

ومضى خمسة عشر يومًا على بدء التجربة، ووضع تلك النفس البشرية في معمل التشريح، وهيأت لي الضحية بنفسها الفرصة لأقص القصة التي كانت بمثابة الشرك، فقد بدا للمركيز أن بين مجلدات دائرة المعارف مجلدًا خاصًّا بإيضاح مختلف ألعاب الورق. وأحب أن يبحث فيه عن بعض الألعاب القديمة ليحاول أن يلعبها وقد دعاه إلى ذلك ما قرأه في بعض الصحف عن لعبة جديدة تدعى "البوكر" تولى الكاتب شرحها وعرض لذكر طائفة من الألعاب القديمة. فصعدت

ابنته إلى غرفة المكتبة في الحال، حيث كنت مشغولا بتدوين بعض الملحوظات فأحضرت لها المجلد الذي تطلبه، فتناولته من يدي، بعد أن نفضت عنه الغبار، وتلطفت فقالت لي:

ـ "أرجو أن نكتشف فيه بعض الألعاب يتاح لك الاشتراك معنا فيها... فإنا لنخشى أن تضيق صدرًا، أو نراك محزونًا".

وخيل لي أن الفرصة سانحة، في هذه الفترة القصيرة كي أشكو إليها همي وبثي، فأجبتها:

ـ آه يا آنسة لو تعلمين حياتي!

ولو لم تكن سريعة التصديق، نزَّاعة إلى الخيال، لشعرت بأن تلك العبارة إنما هي براعة الاستهلال في قصة من نسج الخيال، ثم طفقت أروي لها أني كنت قد خطبت فتاة من "كليرمونت" ولكن في الخفاء، واعتقدت أني أخلع على روايتي ثوب الشعر، حين ألقي في روعها، أن تلك الفتاة كانت روسية قدمت لزيارة بعض ذوي قرباها. ثم أضفت إلى ذلك أني أفضيت إليها بحبي، وأنها كاشفتني بحبها. وأنا أقسمنا بكل محرجة من الأيمان على الوفاء، وعلى أن أسكن إليها، وتكون بيننا مودة ورحمة، نتقاسم السراء والضراء، ونحتمل الحياة بخيرها وشرها وحلوها ومرها، ولكن ما بدت لها صفقة زواج رابحة حتى نكثت العهد وضحت بي في سبيل المال.

وكذلك ضربت على نغمة فقري حتى ألقيت في روعها أن أمي تعيش من فضل كسبي، وارتجلت الأكذوبة الأخيرة وحي الساعة، فقد فرغ علماء النفس من تقرير أن الرياء يتضاعف كلما أوغل المرء فيه. وما كنت أجيد تلك المهزلة الصبيانية. على أن شارلوت كانت بحاجة إلى نظراتك، لتمزق القناع عن وجه ريائي. حقًّا، لقد كان يمكن أن يعزى مظهر اضطرابي إلى إثارة تلك الذكريات في نفسي. على أني احتفظت برباطة جأشي وأنا أفيض بتلك الأكاذيب، فأتيح لي أن أرقب شارلوت عن كثب. فأصغت إلي، ولم تبد عليها مظاهر التأثر والانفعال وهي تنظر إلى الكتاب الذي اعتمدت بيدها عليه، فلما فرغت من حديثي تناولت الكتاب وقالت بلهجة لا تشف عن شعورها:

ـ "لست أدري كيف استرسلت في الثقة بتلك الفتاة التي ألقت بسمعها إليك دون علم أهلها".

ثم حملت الكتاب ومضت بعد أن أومأت برأسها إيماءة لطيفة. وكم كانت بارعة الحسن، رائعة الجمال، هيفاء، وضاءة المحيا! فأرجو أن تبين لي، وأنت العليم بالنفس الإنسانية، كيف بدت لي روعتها، وأنا أكذب عليها، وأسرف في الكذب. نعم، لقد أيأسني جوابها، على حين كان ينبغي أن يبعث في نفسي الرجاء. فما أدركت أن مجرد إصغائها إلي، على بعد ما بيننا، يعد آية من أقوى آيات العطف. وما حسبت أن تلك العبارة التي يشوبها شيء من القسوة، والتي جاءت

جوابًا لإفضائي بسر خداع غرار، إنما أملتها الغيرة التي أردت إيقاظها في صدرها، وأوحت بها الرغبة في تبرير موقفها مني. فكما أنها لم تستطع أن تستشف الاختلاق في ثنايا روايتي، كذلك لم أستطع أن أرى الحقيقة التي تضمنها جوابها. فشيعتها بنظراتي ولبثت أشهد تهدم صروح آمالي. كلا! إني لا أسترعي نظرها، ولا أثير اهتمامها، إلى حد أن أصير ذاك الاهتمام شعورًا ملتهبًا، وعاطفة متأججة. وهل كنت من الغفلة بحيث أظن الأوهام حقائق، والأماني صروحًا مشيدة؟ فأقبلت أزن الأمل في خداعها عن عفافها وأسأل أي دليل على التفاتها إلي، واهتمامها بشأني؟ لئن كانت قد اهتمت براحتي المادية فما ذلك إلا لأن قلبها ينبوع رحمة وحنان. ولئن ساءلتني عن حالي برفق فتلك شيمة فتاة كريمة العواطف. وإذن فما كانت المهزلة التي لعبت أدوارها أسبوعين كاملين، والأكاذيب التي اخترعتها عن مأساة حياتي، إلا مناورات مضحكة لم أخط بها خطوة واحدة نحو ذلك القلب الذي أحببت أن أبسط سلطاني عليه. وباتت تلك الكلمة الصغيرة الجافة التي انحدرت من فم شارلوت، كافية لأن أحكم على نفسي بتلك الصورة، في الفترة التي أعقبت حديثنا. ولطالما كنت فريسة للتحليل المنطقي الذي يلقي على ما يطفئ جذوة حماستي، كما يخمد فورة البخار.

لشد ما كنت محلقًا في سماء الأوهام حين ظننت أني أعبث بآراء شارلوت كما يعبث أخوها بكرات "البليار"! وعلى الرغم من

وفرة مطالعاتي، فقد حسبت العواطف من السهولة والبساطة بحيث يستطيع المرء أن يوجهها أية وجهة يريد! ولمست خطأي فيما بعد. فإذا شئت أن تتعرف ظواهر القلب فول وجهك شطر عالم النبات لا ميدان الصناعة. وإن أحببت أن تنبت تلك الظواهر فاعمد إلى طرق البستاني وأساليبه، فهيئ التربة أولًا، ثم ألق البذور، وتعهدها بالسقيا، وحطها بالعناية والرعاية. فالشعور ينبت، ثم ينمو ويترعرع، ثم يجف ويذبل، كما هو الشأن في النبات. وقد يكون التطور بطيئًا، وقد يكون سريعًا، على أنه غير محسوس في كل حال.

إن بذور الرحمة والغيرة التي ألقيتها بنفس شارلوت قد آتت ثمارها ولكن بعد حين. لقد ظنت الفتاة أني أحب غيرها، فلم تشعر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسها. على أنه كان ينبغي كي أحسن التقدير، وأزن الأمل، أن أكون "ريبو" أو "تين" أو"أدريان سكست" لأتعرف تلك النفسيات العالية. أما أنا فأشهد أني كنت على مثال ذاك الذي يسير في سهل، غير عالم أن في بطن الأرض بذورًا لا تلبث أن تؤتي خير الثمرات. وقد يلتمس العذر لذاك، لكن ما عذري أنا وقد ألقيت البذور بيدي، ولم أرقب لها نموًّا أو ثمرة؟

وضاعفت الأيام خيبة رجائي أن أحمل شارلوت على حبي. فما كانت تخاطبني إلا لمامًا. ثم علمت، من اعترافها لي، أنها كانت تخفي وراء ذاك السكون الظاهر، اضطرابًا ينمو ويشتد وظلت

تغالبه فيغلبها، بحدته وقوته وعميق أثره. ولبثت كأنها مشغولة إلى حين يدرس المركيز لعبة النرد التي عثر عليها خلال تصفحه دائرة المعارف. ولما ذكر أن لعب النرد كان محببًا إلى قلب جده، عدل عن دراسة كافة الألعاب الأخرى. وكذلك كان يقضي المركيز شطرًا من الليل في اللعب مع ابنته. وما كان يعفيها من تلك السخرة إلا حضور القس "برتموف". ومن عجب أن المركيز لم يسألني عم إذا كانت نفسي تهوى اللعب أو تعافه. وكنت أوثر أن أتصفح كتابًا، أو أتصفح وجوه الحاضرين، ولكني شعرت بالذلة إذ يفرق بيني وبين القس، وإن كان هذا نصيب كل من يقيم بين ظهراني قوم يرون أنه أدنى مرتبة منهم؟ إن كل تفرقة في المعاملة تجرح عزة النفس. وكأني كنت أثأر لنفسي حين ألاحظ أن القس يشعر نفسه الإعجاب بأهل القصر عامة والمركيز خاصة، إعجابًا يبلغ حد التقديس. فإذا أقبل القس، وأطلقت لشارلوت حريتها، جلست تعمل إلى جانب والدتها. وحين أخفقت في حبها إياي أصبحت أشعر بالقسوة نحوها، لقد وقعت في شباك غرامها، بدل أن أوقعها في شباك غرامي.

أجل! لقد كانت الآنسة شارلوت مدفوعة نحوي بحب وليد ناشئ تجهله، وكنت أنا مسوقًا إليها بالعوامل والاعتبارات التي بسطتها في مؤلفاتك، ومع قضائنا كثيرًا من ساعات النهار معًا، فما كان أحدنا يشعر بشعور صاحبه.

وفي ذات مساء كان المركيز يحدث امرأته عن مقال ظهر في إحدى صحف الصباح. يحدث عن فرح أقيم لدى بعض أصحابهم ورأى المركيز الصحيفة بيدي، فقال لي:

- وهل لك أن تقرأ لنا هذا المقال يا مسيو جرسلو؟

فلما بدأت أقرأ، أخذت الدهشة تستولي على المركيز، إذ رآني أحسن القراءة، فلما انتهيت منها صاح قائلًا:

"إنك لتقرأ جيدًا، جيدًا جدًّا! فيحسن أن تقرأ لنا في المساء قليلًا... فذلك أجدى علينا من لعب النرد... أما لو عاد الثلج يهطل فلن نمكث هنا ثمانية أيام".. وهنا ضحكت شارلوت فقال: "أتضحكين يا شارلوت ساخرة من أبيك.. وأي كتاب تتخيره لنبدأ به؟"

وكذلك ألفيت نفسي مسوقًا إلى عبودية جديدة، فلم أدر أتتمشى مع دراستي أم لا، فقد كنت أحمل معي كل مساء كتابًا أدرسه، تأهبًا لنيل إجازة الآداب، دون أن أغادره "لوسيان". على أني لم أحاول الخلاص من تلك السخرة الجديدة، بل لم أتبرم بها. فقد نظرت إلى شارلوت نظرة تشف عن التوسل، والتماس التجاوز عن خشونة أبيها.

وخطر لي أن أستغل مشروع المطالعة، لتمهيد طريق الإغراء، وتهيئة الجو لاصطياد الفريسة، وبخاصة أن نظرة شارلوت أحيت موات الأمل في صدري. فلما سألني المركيز عن الكتاب الذي أتخيره أجبته بأني سأجد في البحث عنه. ثم بحثت عن كتاب يهيئ

لي سبيل الدنو من الفريسة التي أمعنت في التحليق حولها، كما تحلق الصقور حول صغار الطير لتنقض عليها، وتنشب مخالبها فيها لكن كيف السبيل إلى رواية تثير عواطف شارلوت ولا تخدش الحياء، فتستطاع قراءتها بمسمع من الأسرة مجتمعة؟ نقبت في المكتبة حتى أعياني التنقيب. وأخيرًا هداني البحث إلى رواية "أوجيني جرندي" فجاءت متمشية مع الغاية التي أرمي إليها، وحبَّذ المركيز قراءتها.

وما لبثت أن قرأت الصفحات الأولى فيها حتى نام المركيز ملء جفونه وانصرفت المركيزة والآنسة "لارجكس" والمرأة المتدينة إلى الحياكة دون أن يبدو منهن ما يدل على الاستحسان أو الاستهجان، واشتغل "لوسيان" بتصفح كتاب صور. وكنت أرقب شارلوت حين القراءة فأرى مشاعرها تهتز تحت سلطان العبارات كما تهتز أوتار القيثارة تحت مضرب العازف. وشعرت بالأثر الذي تركه في نفسها حب أوجيني وابن عمها شارل.

وما من شك في أن كل رواية غرامية كانت خطرًا على شارلوت في الأزمة النفسية التي تجتازها، والعواطف الثائرة التي تتنازعها. ولو كان الأب والأم يملكان شيئًا من قوة الملاحظة إذن لاستطاعا أن يلمسا ذاك الخطر في وجه ابنتهما خلال الثلاث ليالي التي استغرقتها المطالعة.

وأقبلت الآنسة شارلوت على المكتبة تقول: "إني لا أستطيع أن أملأ ساعات فراغي.. فأود أن أسترشد برأيك في مطالعاتي.. فالكتاب

الذي تخيرته بالأمس قد أدخل السرور على قلبي".

ثم أضافت: "إن مطالعة الروايات تضيق صدري، على أني قد أنست في تلك الرواية متاعًا وسلوى".

وما ملأ كلامها سمعي حتى شعرت بالغبطة التي شعر بها الكونت أندريه حين لمح جندي العدو يطل برأسه ليستطلع أحوالهم فصوب إليه بندقيته، وأرداه قتيلًا، أما أنا فقد خيل إليّ أن الفريسة باتت هدفًا لرمايتي.

وهل من شك في أنها حين أقبلت تسترشدني فيما تطالع، قد هيأت نفسها لأصيب منها مقتلًا؟ فوعدتها أن أقدم إليها في الغد ثبتًا بالكتب التي تطلبها. ثم ما لبثت أن اخترت لها طائفة من الروايات التي تفيض بالعواطف. وشغفها بخطاب يحمل تقديري لكل كاتب، فكان ذاك الخطاب هو كل ما احتفظت به شارلوت فعثر عليه المحققون بعد موتها، فاستنتجوا أنه كان البدء في مطارحة الهوى. ويا لها من مطارحة غريبة كانت على النقيض من الطموح إلى الزواج الذي عزاه أولئك الحمقى إليّ! وإذا لم يكن امتناعي عن الدفاع عن نفسي، مبعثه الكبرياء الذي سأكشف لك عنه في ختام تلك المذكرة، فإني لألتزم جانب الصمت تقززًا من تلك العقول الجامدة التي لا تستطيع أن تدرك أن الفكرة، والفكرة وحدها، هي التي أوحت إليّ بما صنعت، وأملت على ما أتيت. ليكن قضاتي الذين يجلسون في منصة

العدالة للبت في مصيري أنت يا أستاذي العزيز، وطائفة أخرى من أمراء الرأي العصري. حينذاك أستطيع أن أتكلم، بأعلى صوتي، وملء فمي كما أصنع الآن. على أنك تعلم أني كنت مسوقًا رغم أنفي إلى ذلك المصير المحتوم، ولكن هذا المجتمع الذي يتغذى بالأكاذيب، يأبى إلا أن يعيش بمعزل عن العلم، ذاك العلم الذي كانت وجهتي خدمته حتى في تلك الفترة التي كنت أفكر فيها أن أخدع شارلوت عن عفافها.

وأرسلوا في طلب الكتب من "كليرمونت" ولم تكن للمركيز أية ملاحظة عليها. على أنه كان ينبغي أن يكون للمرء عقل غير عقل المركيز ليدرك أن ليست هناك كتب سيئة. وإنما هناك فترات سيئة لقراءة خير الكتب. وما أصدق الشبه بين الجرح الذي تحدثه في المخيلة بعض المطالعات، وبين الجروح الناشئة في الجسم المسمم بمرض السكر. فالوخزة البسيطة قد تحدث به نغرًا يوشك أن يهلكه.

واتخذت الآنسة شارلوت تلك الكتب وسيلة لتعرف حالي، وتفهم طريقة شعوري وتفكيري ونظراتي للحياة وللأخلاق. فكانت كلما قرأت جانبًا منها أقبلت تسائلني.

وخلا لي الجو كي أتحدث إلى شارلوت طيلة النهار. فكانت تبدو في الصباح حين أتناول الشاي مع تلميذي، متذرعة بالاشتراك معنا في تناول الشاي، وتجلس إلى المائدة فتتحدث طويلًا. ثم تقبل إلى

المكتبة فأراها، وأتحدث إليها. وكنت ألقاها قبل الطعام وبعده. وكنا نخرج للرياضة في بعض الأحيان، المربية، وشارلوت، وتلميذي وأنا. ونجتمع لتناول الشاي لدى الساعة الخامسة، فأجلس إلى جانبها.

ولبثت زهاء شهرين أتحبب إلى شارلوت. فما كنت أبغي أن أتسلط على خيالها، وإنما كنت أبغي أن أحملها على حبي. ولكم فكرت في أن أضمها بين ذراعي، وأطبع فمها بقبلة حارة. فيخفق قلبي لمجرد التفكير. وما كان لخوف من طردي خارج القصر مجللًا بالخزي ملفعًا بالعار، هو الذي يصدني عن إنفاذ فكرتي. فقد كان كبيرًا على نفسي أن لا أجترئ ولا أقدم. وكم من مرة نهضت في جوف الليل، فهممت بأن أغشى غرفتها. بل كم كنت أفتح الباب في رفق وحذر كما يصنع اللص، فأهبط السلم، ثم التمس الطريق إلى باب شارلوت، مجازفًا بان أضبط، فأطرد، دون أن أبلغ غرضًا أو أنال مأربًا. ولكم هممت بفتح الباب ثم تراجعت ولم أجسر. وما كنت وجلًا ولا هيابًا، وإنما كنت أتهيب طهر شارلوت وعفافها.

وأقبل الربيع بعد طول تردد. وأصبحت أحب تلك الفتاة من كل قلبي. ولما كاشفتها بحبي كنت مخلصًا وفيًّا.

نعم، إني لأذكر يوم صارحتها بحبي. كان ذلك في الثاني عشر من مايو، والجو صحو، فخرجنا نحن الأربعة، الآنسة لارجكس، ولوسيان، وشارلوت، وأنا، قاصدين إلى قرية "سان ساترنان". وما

لبثت الآنسة لارجكس غير بعيد حتى تعبت من السير فركبت العربة. ولقد شهد سائقها على في التحقيق. ثم ما لبث لوسيان حتى لحق بالمربية. وكذلك كنت أسير وحدي مع شارلوت. ووضعت نصب عينيها أن تؤلف طاقة من الزهر، فكنت أعينها. وأوغلنا بين أغصان الأشجار الوارفة الظلال، وبتنا بعيدين عن العربة ومن أقلت. وأدركت شارلوت لأول وهلة العزلة التي أصبحنا فيها. فأنصتت لتسمع عدو الحصان في الطريق، ثم صاحت في مرح الطفولة:

ـ "لقد ضللنا، ولكن لن يعز علينا أن نرجع أدراجنا... فهل لك أن تنتظر حتى أهيئ طاقتي؟ فليس من الخير أن نتلف تلك الأزهار الرائعة".

ثم جلست على صخرة تغمرها الشمس بأشعتها، ونثرت الأزهار فوق ثوبها، وأخذت تنظمها زهرة فزهرة. وجلست إلى الجانب الآخر من الصخرة، وشذى الأزهار ينعش نفسي. وما بدت لي تلك الإنسانة، التي ملكت على قلبي شهرين كاملين، كما بدت الساعة بارعة الحسن رائعة الجمال، بوجهها الوضاح الذي أكسبه الهواء لونًا ورديًّا، ومحياها الذي تشرق فيه ابتسامة، وعينيها النجلاوين، وقدها الرشيق. وخلعت قفازيها، فتكشفت يداها عن جمال يملأ العين روعة. وكذلك تمشى جمالها مع جمال الطبيعة، وربيع عمرها، مع الربيع المغض. وكلما نظرت إليها اقتنعت بأن الفرصة سانحة لأن

أفضي إليها بما احتبس في صدري طويلًا. فلن تتاح لي فرصة مثلها. وخفق قلبي. ولسوء طالعها، التفتت نحوي لتريني طاقتها، فلمحت آثار العاصفة التي تضطرب بين جوانحي ترتسم على وجهي، فاكفهر وجهها بعد أن كان مشرقًا، وارتسمت عليه دلائل الاضطراب، بعد إذ كان هادئًا. وإن أنس لا أنس، أنَّا لم نشر في أحاديثنا إلى تلك القصة الملفقة. وما كنت أدري أنها صدقت تلك الرواية المخترعة. ولكن لم تلبث أن قالت لي ونظراتها تشف عن الأسى:

ـ "لماذا تكدر صفو هذا اليوم الجميل بإثارة الذكريات المحزنة؟ لقد كان يبدو عليك أنك صرت أكثر تعقلًا".

ـ فأجبتها: "كلا! إنك لا تعلمين ماذا يبعث الحزن في نفسي.. آه ليست ذكريات.. إنك تلمحين، على ما أرى، إلى أحزاني الماضية.. إنك مخطئة.. ليس فيَّ موضع لها، كما أنه لا موضع لأوراق العام الماضي بين هذه الأغصان".

وسمعتني أنطق بتلك العبارة، وكأن غيري الذي يتكلم. ورأيت أن شارلوت قد أدركت ما أرمي إليه رغم خلعي الثوب الشعري على عبارتي رجاء أن يخفي ما ينطوي تحتها. فكيف أصبح المستحيل ممكنًا مستطاعًا؟ وكيف اجترأت على ما لم أكن أجترئ عليه؟ ثم تناولت يدها، فأحسست برعدة فيها، كأنما أصاب تلك البنية المسكينة هول وفزع. ووجدت في نفسها القوة لتنهض وتذهب،

فاصطكت ركبتاها، فلم أجد كبير عناء في حملها على الجلوس كرة أخرى. وهالني إقدامي، ففقدت صوابي، وطفقت أعبر لها عن عواطفي، وأترجم عن شعوري، في عبارات لا أذكرها اليوم إذ جاءت عفو الخاطر. فقد استحالت العواطف التي اضطربت بين جوانحي، والشعور الذي جاش في صدري، من يوم قدمت إلى القصر، إلى عبادة لتلك الإنسانة المروعة المضطربة. نعم، استحالت العواطف جميعًا، شرها وخيرها، إلى عبادة لشارلوت، حتى الحسد للكونت أندريه، وحتى تأنيب الضمير لاستغلال فتاة بريئة! وكلما أمعنت في الكلام رأيت وجهها يمتقع، فيصبح في لون الأزهار المتناثرة فوق ثوبها. واندفعت أزجي العبارات في غير خوف ولا حذر، حتى أرسلت الصيحة من أعماق قلبى: "إني أحبك! آه! إني أحبك!" وشددت على يدها، ودنوت منها أكثر من ذي قبل. فمالت كأنما فقدت القوة على التماسك، فطوقتها بذراعي ونسيت في فورة اضطرابي أن أطبع فمها بقبلة حارة. فارتاعت لتلك الحركة، ونهضت، ثم تخلصت. وقالت: "دعني.. دعني..". ثم تراجعت ويداها مبسوطتان لتدفع عن نفسها حتى آوت إلى جذع الشجرة. فأسندت ظهرها إليه، ومظاهر الاضطراب بادية عليها، ثم انحدرت الدموع فوق خديها. ولئن دلت تلك العبرات على شيء فإنما تدل على الحياء الجريح، والثورة المضطرمة، والفورة المتأججة، فلم أبرح مكاني، وتمتمت بتلك الكلمة: "مغفرة".

ـ فأشارت بيدها إليّ قائلة: "لا تنطق بكلمة". ولبثنا على تلك الصورة وقتًا لم أتبينه. ثم ما لبثنا أن سمعنا نداءً يشق أجواء الفضاء. فقد أقلقتهم غيبتنا فصاح لوسيان الصغير الصيحة التي ألفنا أن تجمعنا. فارتعدت فرائص شارلوت، واحتدم الدم في وجهها. وألقت عليّ نظرة رهيبة تشف عن العزة أكثر مما تشف عن الفزع. ثم نظرت إلى نفسها كأنما أفاقت من حلم مروع. ورأت يديها العاريتين، وكانتا لا تزالان ترتعدان، فلم تنبس بكلمة واحدة، والتقطت قفازها، وأزهارها، وراحت تعدو أمامي كما تعدو الفريسة التي روعها الصياد. وسارت صوب الجهة التي كان ينبعث منها النداء. ولم تلبث أن صرنا إليها. وقالت لمربيتها درءًا لما عسى أن توجه إليها من سؤال قد يثيره مظهرها: "إني لأشعر بشيء من التعب. فهل لك أن تفسحي لي مكانًا بالعربة فلا بد لنا من العودة".

فأجابتها المربية: "إن حرارة الجو هي التي آذتك".

ـ وتساءل الغلام حين تبوأت شارلوت مكانها من العربة وجلس هو إلى الخلف: "ومسيو جرسلو؟"

ـ فأجبت: "سأعود سيرًا على قدمي".

ودرجت العربة مسرعة، ولوسيان يلوح بيده حتى اختفت عن الأبصار. فألفيت نفسي في الطريق وحدي. فأحسست الألم يشيع في نفسي بعد ذاك المرح الذي كان يملأها أولًا. فلقد أثرت المعركة ثم ما

لبثت أن خسرتها. ولسوف أطرد من القصر شر طرد. نعم، لقد كان هذا الشعور هو الذي أطار صوابي، بدل أن يكون مزيجًا من الأسف والخجل والرغبة. ذلك هو الطريق الذي ساقتني إليه فلسفتي. وذاك مصير الحصار الذي ضربته حول قلب تلك الفتاة! وكأني كنت أرسل الصيحة في جوف الصحراء، فلم تنحدر من فمها كلمة واحدة إجابة لصدى ذاك الإفضاء الحار الملتهب. ووقفت في مكاني جامدًا لا أتحرك، مجتزئًا بالعبارات المسرحية أزجيها إزجاءً. وكانت إيماءتها، وفرارها بعيدًا عني ويداها المبسوطتان، كان كل ذلك كافيًا لأن يجعلني أتحجر في مكاني. وما من شك في أن العاطفة التي كانت تنزع بي إليها في تلك المرحلة، قد تألفت عناصرها من الكبرياء والحساسية، إذ انقلب شعور العبادة الذي جعلني أتدفق بعبارات الهوى تدفقًا إلى شعور بالحنق، إذ لم أطرحها أرضًا، فأغتصبها اغتصابًا، لدى جذع الشجرة التي أسندت ظهرها إليه. على أني وقد أصبحت على قيد خطوات منها لم أزد أن أسألها المغفرة. وتمثل لي وجه الكونت أندريه. وتجلى أمام ناظري مظهر الازدراء الذي ينطبع على وجهه حين يقصون على سمعه ذاك الحادث. فلما صرت أمام القصر شعرت بذل كبريائي. وبدا لي أن أعود أدراجي إلى كليرمونت، بدل أن تتلقاني شارلوت بالاحتقار، ويفجأني أبوها بالإهانات.. لكن لم يعد في الوقت متسع. فقد تقدم المركيز نحوي مصحوبًا بلوسيان الذي كان يدعوني. فجاءت صيحة الغلام، واستقبال الأب، دليلًا على أني كنت واهمًا إذ اعتقدت دنو مصيري.

ـ وقال لي المركيز: "لقد خلَّفوك وحيدًا. ولم يخطر ببالهم أن يبعثوا إليك بالعربة ثانية.. وما أخالك إلا متعبًا من السير.. وأكبر ظني أنك أسرعت الخطا.. وأخشى أن تكون شارلوت قد أصابها برد.. فما لبثت أن أوت إلى فراشها.. إن شمس الربيع خداعة".

وإذن فالآنسة شارلوت لم تبح بشيء بعد!

إنها تتألم الليلة.. وأكبر الظن أن ستفضي بكل شيء غدًا. فلم يسعني إلا أن أعد أوراقي، وأتأهب للرحيل. ولقد كنت في ذلك الحين، أحرص عليها كل الحرص، إيمانًا بموهبتي كفيلسوف! ثم أقبل الغد. ولم يحصل شيء. ورأيتني مع شارلوت على المائدة حين تناول الغذاء. وكانت ممتقعة الوجه كمن مسه ألم شديد. وشعرت أن صوتي يحدث لديها شيئًا من الاضطراب. فقضيت أسبوعًا كاملًا وأنا أرقب الطرد في كل يوم دون أن أفكر في أن أغادر القصر طائعًا مختارًا. وما كانت تعوزني الأعذار التي أتلمسها، والأسباب التي أنتحلها. وإنما كان يقعد بي الفضول وحب الاستطلاع.

وفي اليوم الثامن استدعاني المركيز فأيقنت أني لا محالة هالك. وترقبت أن أرى وجهًا متجهمًا، وعبارات جارحة تنهال على رأسي انهيالًا. فما راعني إلا أن أراه وقد تهلل وجهه، وأبرقت أساريره.

ـ قال المركيز: "إن ابنتي ما زالت تتألم.. لا شيء من الخطورة. ولكن حالات عصبية غريبة.. وهي تود أن تستشير بعض الأطباء في

باريس.. فأنت تعلم أنها كانت مريضة من قبل فأبرأها طبيب وضعت فيه كل الثقة. وسيكون من دواعي اغتباطي أن أستشيره فيما يختص بحالتي. فسأسافر معها بعد غد. وقد نستطيع القيام برحلة بسيطة للترويح عن نفسها. لذلك وددت أن أوصيك بلوسيان، في فترة غيابنا، وإني راضٍ عنك يا عزيزي جرسلو.. ولقد كتبت إلى "ليماسيه" بالأمس مظهرًا ذاك الرضا.. وإني لسعيد بلقائك".

وإنك لتحكم، يا أستاذي العزيز، بما كشفت لك عن خلقي، أن تلك التحية كانت خليقة أن تداعب كبريائي، إذ جاءت شهادة ناطقة بإجادتي لتمثيل دوري، فوق أنها مسكنة ما ثار بنفسي من مخاوف. ورحت أسائل نفسي: لماذا حبست شارلوت لسانها عن الكلام في مكاشفتي بحبها؟ ولم أعلل ذاك الصمت بأنه في صالحي، بل ظننت أنها أمسكت عن الكلام إبقاء عليَّ، كسب قوتي، مسوقة بعامل الشفقة، لا مدفوعة بشعور الرحمة الممزوجة بالحب، كما وددت أن أجد تلك العاطفة في نفسها. ولم يكد هذا التعليل يثور في خاطري حتى عزَّ عليّ احتماله. وقلت في نفسي: "كلا، ذلك ما لا يكون. ولن أتقبل ذاك الإحسان الذي يوليه تسامح يجرح عزة نفسي.. ومتى عادت الآنسة شارلوت لن تجدني هنا، إنها تدلني على ما كان ينبغي لي أن أصنع. وددت أن أثير اهتمامها، فلم أثر حتى غضبها.. فلنغادر وفي نفسها ذكرى غير ذكرى ذاك الفضولي الذي يستمسك بمركزه، رغم الإهانات التي تنصب فوق رأسه".

ولقد مات أمل الإغراء في صدري، ذاك الأمل الذي ظللت أداعبه طوال فصل الشتاء، إلى حد أن كتبت إليها خطابًا، في الليلة أعقبت حديثنا ألتمس فيه غفرانها. وصارحتها بأن كل رابطة بيننا باتت مستحيلة، وأنها لن تضيق صدرًا بوجودي لدى عودتها. فلما أقبل الغد، تربصت حتى تدعوها والدتها، فأستطيع أن أغشى حجرتها. فما أن ذهبت حتى سارعت إلى وضع الخطاب على مكتبها. فوجدت بين الكتب التي أعدت لتوضع في الصناديق، كتابًا على غلافه هذه الكلمات: ١٢ مايو عام ١٨٨٦.. وذلك تاريخ مكاشفتي لها بحبي! فتناولت الكتاب ثم فضضته. فألفيت به أزهارًا جافة.. وإذًا فقد احتفظت بتلك الأزهار. وحرصت عليها رغم ما أفضيت إليها به، بل بسبب هذا الإفضاء، وآية ذلك، هذا التاريخ المكتوب بيدها: ١٢ مايو عام ١٨٨٦ ـ وما أحسب أني تأثرت يومًا كما تأثرت حين رأيت ذاك الكتاب. فطغت موجة كبرياء غمرت قلبي. نعم، إن شارلوت قد دفعتني. ونعم، إنها تعلقت بأذيال الفرار. ولكنها كانت تحبني. وبيدي الدليل على شعورها الذي ما كنت أجسر على أن أشرئب إليه بآمالي. فأعدت الكتاب إلى مكانه، وسارعت إلى غرفتي، خشية أن تفاجئني، ولم أدع خطابي، بل بادرت إلى تمزيقه.

والآن، فلا ينبغي أن أرحل. بل يجمل بي أن أقيم حتى تعود. وفى هذه المرة سأقتحم الحصن المنيع. وسيعقد النصر بلوائي. إنها تحبني.

الأزمة الثانية

أجل، لقد كانت تحبنى. والتجربة التي صاغها كبريائي وفضولي قد توجت بالنجاح. فلما تجلت لي تلك الحقيقة، وما كانت لترقى إليها الشكوك بعد هذا الدليل الذي لمسته بيدي، هان عليّ رحيل الفتاة، لا بل أصبح عذابًا سائغًا. فلا ريب أن رحيلها يحمل في ثناياه معنى مغالبتها لشعورها، وأن ذاك الشعور متدفق عميق. ثم أن غيابها بضعة أسابيع كفيل بإنقاذي من ورطتي. فماذا أصنع؟ وما هو الطريق الذي ينبغي أن أسلك، والسياسة التي يجب أن أنتهج، ليتم لي النجاح؟

سيتسع أمامي مجال التفكير في أثناء غيابها الذي لن يطول، إذ أن أسرة جوسات لا تملك الآن مسكنًا إلا في "أوفرني" فأرجأت إلى المستقبل حبك أطراف خطة جديدة. واستسلمت لنشوة الظفر حين كنت أشهد رحيل شارلوت وأبيها. واستأذنت منها وصعدت إلى غرفتي. وكانت مصافحة المركيز لي ودية حارة، فلم تدع لديَّ مجالًا للشك في أن عروة ارتباطي بالأسرة لا انفصام لها. ولمحت تحت رداء فتور الفتاة المصطنع، قلبًا دائم الخفقان.

وكنت أقيم بالطابق الثاني، في غرفة تشرف نافذتها على واجهة القصر. فوقفت خلف الستار، بحيث أَرى ولا أُرى، لأشهد ركوبها

العربة. فبدا المركيز ثم بدت شارلوت. فما استطعت أن أتبين ملامحها تحت النقاب وأنا أشرف من علٍ، ولم أدر، حين أزاحت النقاب عن وجهها لتجفف دمعها أكان مبعث انفعالها قبلات الوداع من أمها وأخيها، أم يأسها من مغالبة شعور تجد أشد العناء في مغالبته. على أني رأيتها وقد أدارت رأسها حين بلغت العربة سور القصر. وإذ كان أهلها قد تواروا، فالأم كانت تنظر، وتنعم النظر إن لم تكن إلى تلك الشرفة التي أويت اليها لأراها. واحتجبت العربة، ثم بدت على ضفاف البحيرة، لتتوارى عن الأبصار كرة أخرى في الطريق الذي يجتاز غابة "برادات" ـ ذاك الطريق الذي يثير ذكرى يخفق لها قلبها.

وكذلك أشبعت شهوة كبريائي. ولبثت أداعب ذاك الشعور شهرًا كاملًا. وفى ذلك الدليل الناهض، والآية الحية، على أن علاقتي بتلك الفتاة كانت لا تزال روحية بحتة. وما كنت أصفى عقلًا وأنضج رأيًا وأخصب تفكيرًا مني في ذلك الحين. وإذ ذاك كتبت أبهى صفحاتي عن عمل الإرادة أثناء النوم. وأدمجت فيها بيان عزمي طوال تلك الشهور. فلقد حرصت على أن أسجل حالتي النفسية في كراسة أعددتها قبل أن آوي إلى مضجعي، وحين أنهض من نومي. وألفيت نفسي حرًّا طليقًا، ووجدت أمامي متسعًا من الوقت. فالآنسة لارجكس والأخت أناكليه تحرصان على ملازمة المركيزة. وإذا صفا الجو حرصت أن أخرج وتلميذي للرياضة. وغرست في نفسه حب اصطياد الفراش بدعوى تلقينه مبادئ العلم. فكان في كل حين يحمل عصاه وشبكته

لاصطيادها، فيوغل في الصيد بعيدًا عني، ويدعني أوغل في تفكيري، فكنت أنظر إلى أوراق الأشجار وهي تتفتح للشمس، فأذكر نواميس التنفس لدى النباتات، وكيف كان من المستطاع تبديل حياتها بتبديل الضوء. فإذا استطعنا أن نعرف نواميس النفس البشرية أتيح لنا أن نوجه حياتها الوجهة التي نريد. ولقد تكلل سعيي بالنجاح في خلق عاطفة بين جوانح فتاة تفصل بيني وبينها هوة عميقة مظلمة، فأي وسائل جديدة تسمح لي بأن أذكي نيران تلك العاطفة؟ وذهلت عن صفاء السماء، وغفلت عن جمال الغابات، وروعة البراكين، وبهاء الربوع، وما عدت أرى غير العبارات النفسية المصبوبة في قوالب الحساب، والصيغ الخلقية المطبوعة على غرار علم الجبر.

وتنازعتني حلول كثيرة أعددتها لليوم المرتقب حيث أصبح في عزلة القصر، وجهًا لوجه أمام الآنسة شارلوت. أيجدر بي حين تعود أن أصطنع عدم المبالاة لأبلبل فكرها، ثم أحملها على التسليم بعامل الدهشة والألم؟ أم أضرم نيران الغيرة في صدرها، بأن ألقي في روعها أن تلك الفتاة الروسية التي لا وجود لها إلا في خيالي قدمت إلى كليرمونت وإنها ما برحت تكتب إلي؟ أم أضيف حلقات جديدة إلى سلسلة مكاشفتي لها وأدرع بالإقدام دون تهيب؟

لقد أدرت هذه الفروض في ذهني على التعاقب، وقلبت فروضًا أخرى فكنت أقنع نفسي بأني لست مأخوذًا بحبها، وأن الفيلسوف

يتسلط على العاشق، وأن شخصيتي القوية احتفظت بسموها واستقلالها وصفائها. وكنت أنحى على نفسي باللائمة، كلما بدا من جانبي وهن أو تخاذل لا يتمشى تلك التقديرات. فالحق أني كنت أستسلم للأحلام كلما خلوت إلى نفسي، ورأيتني أمام صور شارلوت مزدانة بها الحوائط، أو فوق الموائد، أو في غرفة "لوسيان". وكانت صور فتوغرافية بكافة الأحجام، تمثلها وهي في السادسة، والعاشرة، والخامسة عشر، فأتيح لي أن أتابع تاريخ جمالها، من عهد الطفولة إلى يوم صارت فتاة رائعة الجمال، وبدا لي أن ملامحها تتبدل من صورة لأخرى، على أن نظرتها لم تتغير أبدًا. نعم، لقد ظلت نظرتها وهي طفلة كنظرتها وهي فتاة، تفيض جدًّا وخطورة، وحنانًا وعطفًا، وتتكشف عن الشعور والحساسية، ولقد بسطت تلك النظرة سلطانها عليّ، وكلما ذكرتها ثارت عواطفي. آه! لماذا لم أرفع أمامها راية التسليم؟ ولماذا حال كبريائي بيني وبين المتاع بها؟ لكن، لماذا كانت شارلوت إلى جانب أخيها الكونت أندريه في معظم تلك الصور؟ لقد كانت مراجل الحقد تغلي في صدري كلما رأيت ذاك الرجل. فلما شهدته إلى جانب أخته، غاض الحنان من نفسي، ولم يعد فيَّ إلا إرادة تعمل. وأي إرادة؟ الآن قد اجترأت على أن أبوح بها لنفسي بعد أن أيقنت بوقوع ذاك القلب في حبائلي. نعم، لقد كنت أريد أن أصبح عاشقًا لشارلوت.. وما حملت نفسي على التفكير في النتائج، كما حملتها على إخماد ثورة الضمير لانتهاك حرمة بيت آواني.

فاستجمعت أفكاري، وركزت في نفسي نظرياتي عن عبادة الذات. وظفرت من تلك التجربة بطائفة من الانفعالات والذكريات. وكذلك كانت النتيجة الأدبية لتلك المغامرة. فأما النتيجة المادية فعودتي لأمي بعد انقضاء مدة التدريس. فإذا استيقظ الضمير في نفسي، وأهاب بي: "وشارلوت؟ هل من حقك أن تتخذها مادة لتجربتك؟" تناولت كتاب "سبينوزا" فقرأت فيه النظرية القائلة بأن حقنا محدود بقدرتنا. ثم تناولت كتابك "نظرية العواطف" فدرست فيه عباراتك عن الصراع بين الجنسين في ميدان الحب. وكنت أقول لنفسي: "إن قانون العالم يقضي بأن كل وجود غزو ينفذه الأقوياء، ويحتفظون به على حساب الضعفاء. وذلك حق في العالم الأدبي، كما هو حق في العالم الطبيعي. فهناك نفوس جارحة، كما أن هناك ذئابًا ونمورًا وبزاة". فبدت لي تلك العبارة قوية، طريفة، صادقة، فطبقتها على نفسي، وكررت القول: "أنا نفسي جارحة، أنا نفس جارحة".

وما لبث كبريائي أن تبدد بحادث غير مرتقب. فقد كتب المركيز بخبر أنه سيعود إلى القصر وحده. وأما الآنسة شارلوت التي ما برحت تتألم، فستظل في باريس لدى خالتها. وكنا على المائدة حين حملت إلينا المركيزة ذاك النبأ، فانفجرت براكين غضبي على صورة كانت مثارًا لدهشتي، وغادرت العشاء تحت ستار الدعوى بأني أصبت بدوار مفاجئ. ولقد كنت أوشك أن أصيح، وأحطم الأدوات، وأترجم بمظهر جنوني عن ذاك الضرب من السعار الذي أثار ثائرتي.

ففي وسط حمى الغرور التي تملكتني منذ رحيل شارلوت، قدرت كل احتمال، إلا أن تكون تلك الفتاة من قوة الخلق بحيث لا تراجع إلى "إيدات".

لقد كانت وسيلتها إلى الفرار من شعورها هينة لينة، ولكنها سامية ونهائية. وكذلك حبطت خطتي، كما يحبط المدافع في إصابة عدو تحصن بعيدًا عن مرماه. وما عسى أن يكون سلطاني عليها إذا كانت بنجوة مني؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق، وما لي أن ألحق بها. فبدا لي عجزي، فأمض نفسي، وآلم شعوري، ومزق أعصابي، فنبا بي الفراش، وتجافى جنبي عن المضجع، ولم أذق الطعام في الفترة التي مضت بين ورود الخطاب وقدوم المركيز نفسه.

وابتغيت أن أتبين إذا كان ذاك العزم من شأنه أن يميت الأمل في صدري إلى غير بعث، وأن لا رجاء في عودة الفتاة خلال شهر يوليو أو في غضون أغسطس وسبتمبر. فقد كان تعاقدي ينتهي في منتصف أكتوبر. فكان قلبي يخفق حين كنت أنا ولوسيان في محطة كليرمونت نرقب قدوم القطار من باريس لدى الساعة السادسة. فلما أعياني القلق التمست أن يؤذن لي في التقدم إلى المركيز. وأقبل القطار وأطل المسيو دي جوسات برأسه من النافذة، وأنا أوشك أن أفتح عينيه على العاطفة التي تتأجج بين جوانحي، إذ قلت:

ـ "والآنسة شارلوت؟"

ـ فصافحني بحرارة وأجابني: "شكرًا، شكرًا، يقول الطبيب إنها مصابة باضطراب عصبي شديد. ويلوح لي أن طقس الجبال لا يلائمها.. لكن كيف السبيل وأنا لا أشعر بالصحة إلا في ربوعها! حقًّا إن هذا لمؤلم، مؤلم جدًّا.. وأخيرًا، فسنجرب الاستشفاء بالماء البارد في باريس، وربما جربناه بعد ذلك في رجتز".

إنها لن تعود! وإذا كنت قد أسفت على شيء، يا أستاذي العزيز، فإنما آسف اليوم على تلك الكراسة التي ألقيتها طعامًا للنيران، والتي كانت وثيقة قيمة لعلم النفس. وكيف لا وقد كنت أضمنها آرائي يومًا فيومًا، وأرسم فيها صورة صادقة لنفسيتي منذ صارحني المركيز، في مساء يوم من شهر يونيه، بأن ابنته لن تعود. وجرت الأمور على ذاك المنوال حتى كان شهر أكتوبر، فجاء ظرف غير مرتقب، فغير مجراها. ولو اطلعت على تلك الكراسة، لراعك أن ترى فيها، كما ترى في مجموعة خرائط للتشريح الخلقي، مصداقًا لتحليلاتك الرائعة، عن الحب، والرغبة، والأسف، والغيرة، والحقد. أجل، لقد مضت أربعة شهور طوال، تقلبت خلالها في تلك المراحل جميعًا. فكتبت إلى شارلوت إيمانًا مني بأن غيابها ينم عن حبها لي، وفى ذاك الكتاب سألتها المغفرة عن تهجمي عليها في غابة "برادات". على أني جددت التهجم، على صورة أبشع وأشنع، إذ شفعت طلب المغفرة، بإماطة اللثام عن اليأس الذي ملك قلبي حين أصبحت بعيدًا عنها، فجاء الكتاب مكاشفة جديدة بالحب، أعظم جرأة من المكاشفة

الأولى، فلم أكد ألقيه في صندوق الخطابات، حتى تملكني الخوف من جديد.

ومضت ثلاثة أيام، ثم أربعة، ولم أتلقَّ جوابًا. على أني كنت أخشى أن يرد إلى كتابي دون أن يفض غلافه. وفي ذاك الحين، كانت المركيزة تعد عدتها تأهبًا للرحيل لتلحق بابنتها. وكان لأخيها بيت رحب في باريس، فاستطاعت أن تفسح فيه لتينك السيدتين مكانًا. ولشد ما اضطربت جوانحي كلما كتبت ذاك العنوان الجديد. فقد قدرت أن خالة الفتاة لا تراقب رسائلها كما تصنع أمها. فكان لا بد لي أن أرقب وجود تلك الأخيرة في "إيدات" فأضاعف الأثر الذي أنتجه خطابي الأول لا محالة. فواليت إرسال الخطابات كل يوم إلى حين سفر المركيزة، وكانت كلها مطبوعة على غرار الخطاب الأول، أتهالك فيها وجدًا عليها، وأكاد أطير شوقًا إليها، وأتحرق حبًّا لها.

وكانت رغبتي الملحة في حمل شارلوت على العودة أدنى إلى الخيال وأبعد عن العقل. فلقد علمت أنها كلما جاءها كتاب مني تتبين خطي على غلافه، ظلت ساعات تصارع الرغبة في فضه. وأخيرًا تفضه. فتطالع تلك الصفحات التي تقطر سمًّا. وإذا كانت تجهل الاكتشاف الذي أزاح لي الستار عن سرها، وكشف أمامي القناع عن شعورها، لم تجد بنفسها حاجة إلى الدفاع حيال الرأي الذي يمكن أن أكونه عنها. فما من شك أنها كانت تبرر موقفها، وتتلمس لنفسها

المعاذير عن قراءة كتبي، بدعوى أني أجهلها، وأجهل حبها الوليد.

ومست تلك الكتب شغاف قلبها فاحتفظت بها. وألفاها المحققون ترابًا في موقد غرفتها. فلقد ألقتها طعامًا للنيران ليلة موتها.

وقدرت أثر تلك الكتب التي كنت أسطرها في جوف الليل، مسوقًا بأني أطلق مقذوفاتي الأخيرة. فكان موقفي شبيهًا بموقف من يطلق المقذوفات النارية وسط ضباب كثيف، إذ لم تبد إشارة تدلني على أني في كل مرة صوبت إلى تلك التي جعلتها هدفًا لرمياتي، كنت أصيبها في صميم القلب.

وفي بادئ الأمر، ظننت عدم الوثوق في صالحي. فلما غادرت المركيزة القصر لتلحق بابنتها، استحالت الكتابة عليّ، ووجدت في صمت شارلوت الدليل الناهض، لا على عدم حبها لي، ولكن على أنها تغالب ذاك الحب، ولسوف تغلبه. فقلت لنفسي: "ينبغي لي أن أكف عن تلك المحاولات، فما أنا ببالغها". ولقد انقضى كل شيء، ورفعت صوتي بتلك العبارة، إذ كنت وحيدًا في غرفتي، أسمع كر العربية التي أقلت المركيزة. وصحبها المسيو دي جوسات ولوسيان حتى استقلت القطار. فقلت في نفسي: "نعم، لقد انقضى كل شيء، وماذا يضيرني، ما دمت لا أحبها؟" فهدأت ثائرتي، ولم أشعر إلا بشيء من الضيق الذي يشعر به المغيظ المحنق. فبادرت إلى الخروج، لأزحزح الكابوس الجاثم فوق صدري، ويممت شطر المكان الذي

صارحت فيه شارلوت بحبي، وحملت معي كتابًا جديدًا تلقيته، ترجمة خطابات "داروين" لأقنع نفسي بأن عقلي بات حرًّا طليقًا. وكان الجو ملبدًا بالسحب، على أن الطقس حار، وكأنما كانت تهب رياح السموم فتلفح تلك الأشجار النضرة. وكلما أمعنت في السير، عصفت تلك الرياح بأعصابي، وأحببت أن أعزو إليها ما أعاني من ضيق ومحرج، وبعد جهد اهتديت إلى حيث كنا نجلس شارلوت وأنا. واخترت أن أطالع كتابي. فجلست وفتحت الكتاب. فما قرأت بضعة أسطر حتى ساورتني الذكريات وطغت على مشاعري، وكأني أبصر بالفتاة على تلك الصخرة وهي تنسق أزهارها. ثم أراها ناهضة ومستندة إلى جذع الشجرة، ثم أشهدها مروعة مذعورة، تلوذ بأذيال الفرار فوق الأعشاب. فأحسست الألم يطغى على قلبي رويدًا، فيحبس أنفاسي ويستدر دموعي. وهالني أن أرى تلك البنية قد شغفتني حبًّا، فلم يعصمني من حبها ما أوتيت من قوة على البحوث الفلسفية، وقدرة على التحليلات النفسية ـ البنية التي لا يضمها هذا المكان، ولن تراه بعد الآن.

فلما تجلت لي تلك العاطفة المنافية للخطة التي رسمتها لمغامرتي، ثرت عليها، وعلى خيال الفتاة التي كانت مبعث ألمي. فما مضى يوم لم أرجع فيه على نفسي باللائمة لذاك العار الذي أصابني، والخزي الذي لحقني، إذ تردَّيت في الهوة التي حفرتها، واضطربت في الشباك التي نصبتها. وما ذكرت موقفي حتى فاض قلبي حقدًا ومرارة على تلك النائية التي باتت مصدر شقائي.

وليس أدل على حقدي من ذاك الاغتباط الشائن الذي غمر قلبي حين تلقى المركيز خطابًا من باريس، فلما قرأه اكفهر وجهه، وقطب جبينه، وتنفس الصعداء قائلًا: "إن شارلوت ليست بخير". فشعرت بعزاء ناقص، تعس، ولكنه عزاء في كل حال، إذ استطعت أن أقول لنفسي إني أنا الآخر قد جرحتها جرحًا مسمومًا لا يلتئم إلا بعد حين. وخيل إليّ أني أَثَار لنفسي منها، إذا ظلت تتألم وبرئت أنا من دائي. فأهبت بالفيلسوف الذي يتبدى في ثيابي، ليظفر بالعاشق الذي يضطرب بين جوانحي. وعدت إلى منطقي القديم. فقلت: "هناك نواميس للنفس البشرية أعرفها جد المعرفة. على أني لا أود أن أطبقها على شارلوت لأنها فرت مني. أفأعجز عن تطبيقها على نفسي؟" ثم أعملت الفكر في هذا السؤال: "هل هناك دواء لداء الحب؟" ـ فأجبت نفسي: "نعم، هناك أدوية، وسأجدها". فأعانتني طبيعتي على التحليل الشبيه بالتحليل الحسابي على البرء من دائي، وعمدت إلى تحليل المسألة إلى عناصرها كما يصنع علماء الهندسة. فتساءلت: "ما هو الحب؟" وأجبت نفسي بتعريفك: "الحب هو الضيق الناشئ عن التفكير في الجنس". والآن، كيف السبيل إلى مغالبة ذاك التفكير الملازم؟ لا سبيل إلى تلك المغالبة إلا بالتعب الجسماني الذي يقف، أو على الأقل، ينقص من عمل الفكر. فأكرهت نفسي، وأكرهت تلميذي معي، على المشي البعيد. فإذا أقبل اليومان اللذان لا يتلقى فيهما دروسًا، وهما الأحد والخميس، سرت وحدي حين

يتنفس الصبح، بعد أن أدل على الزمان والمكان اللذين يلحقني فيهما "لوسيان" بالعربة. وكنت أوصي بإيقاظي حوإلى الساعة الثانية. فأبرح القصر قبل أن ينبثق الفجر. فأضرب في الأرض على غير هدى، وأختار الطريق الوعر، وأتسلق الجبل الصعب المرتقى، الشديد المنحدر. ولكم قامرت برأسي وجازفت بحياتي وعرّضت للتهشيم أعضائي، وللتحطيم أشلائي. وكنت أسير والليل مدبر. فإذا انبثق نور الفجر، شعرت بزمهرير الصباح كوخز الأبر في وجهي. ورأيت الكواكب تحتجب، والشمس ترسل أشعتها على الأزهار والأشجار والأعشاب فتخلع عليها حلة وردية وهاجة. وكنت أرجو بذاك السير المضني والصعود المنهك أن أوقظ في نفسي روح أجدادي، روح أولئك الذين كانوا يأوون إلى المغاور والكهوف. فما أنا إلا مؤمن بعصر ما قبل التاريخ. وما أنا إلا مصدق أن الوحش الضاري يكمن تحت أثواب الإنسان المُتَمَدْيِن وهل انحدرت إلا كما انحدر غيري من تلك الوحوش الضواري. فلما ثارت تلك الخواطر في نفسي بلغت حد الهذيان، فلم يكن السلام الذي أتطلبه، ولا السرور الذي أنشده، بل كانت ذكرى علاقتي بشارلوت. ولقد كنت أذكرها كلما اجتزت طريقًا اجتزناه معًا، أو شهدت صفحة ماء البحيرة من قمة الجبل، أو لمحت شرفات القصر، أو رأيت أوراق الأشجار، أو قرأت اسم قرية كتب على لوحة قرأتها شارلوت من قبل. نعم، كان كل هذا يثير ذكراها في نفسي، ويحزن قلبي أن لا أراها إلى جانبي. وكأني كنت

أسمع صوتها العذب وهي تقول لي: "انظر". كما كانت تقول ونحن معًا في ربوع الجبال، تحت ذاك الأفق، وقد غطت الثلوج الأرض ـ ولكن زهرة جمالها الحية كانت تتفتح أكمامها ـ والآن والأرض تكسوها الخضرة، عز عليّ أن أرى فوقها الزهرة الحية. فأحسست الوجد لفراقها. وبخاصة أن "لوسيان" كان غائبًا، وقد ألف أن يحدثنى عنها في كل حين. كان يحبها، ويعجب بها، ويدلني على أنها خليقة بالحب، جديرة بالإعجاب. وقضيت الليالي مسهدًا أبكي وأنتحب، وأهتف باسمها هتافًا عاليًا كأنما أصابني ضرب من الجنون.

ـ فلما لم أجد الدواء في إنضاء الجسد قلت لنفسي: "إن الفكر هو مبعث آلامي. فلنهاجم الفكر بالفكر". وكان عهدًا ثانيًا حاولت خلاله أن أغير اتجاهي العقلي. فأقبلت على الدراسة التي لا تمت بصلة إلى المسائل النسائية. وفي أقل من خمسة عشر يومًا، راجعت، والقلم في يميني، مائتي صفحة من كتاب "علم وظائف الأعضاء" لبونيس، وهو الكتاب الذي حملته في صندوق، وكانت أوعر الصفحات مسلكًا، وأعسرها فهمًا، وأشدها جفافًا، إذ كانت خاصة بكيمياء الأجسام الحية. وبذلت جهودًا جبارة في سبيل أن أفهم وألخص تلك التحليلات التي تتطلب المعمل، فأخمدت شعلة ذكائي، وأطفأت جذوة تفكيري، وبت كالأبله، وما استطعت أن أقاوم الفكرة الثابتة. فأيقنت أني ضللت الطريق مرة أخرى. أفلم تكن الطريقة المثلى هي التي كان ينادي بها "جوته": تسليط الفكر على الألم الذي يراد

الخلاص منه؟ فهذا العقل الجبار، الذي عرف كيف يعيش، قد وضع موضع التنفيذ النظرية التي أوضحها "سبينوزا" في كتابه الخامس، والتي تنادى بأن نستخلص من حوادث حياتنا الشخصية القانون الذي يصل بينها وبين الحياة العظمى للكون. ولقد نصحنا المسيو "تين" في الصفحات البليغة التي كتبها عن "بيرون" بأن "نفهم أنفسنا" رجاء أن "ينتج ضوء العقل هدوء القلب". وماذا تقول أنت يا أستاذي العزيز في مقدمة كتابك "نظرية العواطف"؟ ألست القائل: "لا سبيل إلى تحرير النفس إلا باعتبار مصيرنا الشخصي مرتبطًا بنواميس الطبيعة"؟ وهل أكتب هذه المذكرة إلا في ضوء تلك المبادئ؟ وهل تجدي هذه المبادئ عليّ اليوم، وهي لم تجد عليّ بالأمس؟

لقد حاولت في ذلك العهد أن ألخص تاريخ حبي لشارلوت. فافترضت شابًّا يستشير عالمًا من فطاحل علماء النفس. فانظر كيف تحقق المصادفات المحضة أحلامنا المتلاشية! والعالم يُشَخِّص للشاب الداء، ويصف له الدواء. وكتبت تلك القطعة خلال شهر أغسطس تحت تأثير جو حار. وكرست لكتابتها حوالى خمس عشرة جلسة، تبدأ في الساعة العاشرة مساء، وتنتهي لدى الساعة الأولى صباحًا، والنوافذ مفتوحة، والفراش يتهالك على مصباحي. وبدأ القمر يرسل أشعته الفضية على صفحة الماء في البحيرة. فألقيت القلم من يدي وأخذت أتأمل جمال الطبيعة. وشعرت بأن السعادة لا تتم لي إلا إذا كانت شارلوت معي في تلك الغرفة، جالسة على هذا

المقعد، أو نائمة في ذاك الفراش، يصافح جسمها جسمي، وتعانق روحها روحي، ويلاقي شبابها شبابي.

فلما ضاق صدري التمست من المركيز أن يمنحني إجازة، فمنحني ثمانية أيام قضيتها في كليرمونت. وما لبثت أن تبرمت بالحياة فيها، وتاقت نفسي إلى العودة للقصر. فهناك يتاح لي أن أعيش بين ذكرياتي. وما إن قدمت حتى عاجلني المركيز بنبأ انقضَّ عليّ انقضاض الصاعقة.

فلم يكد يراني حتى قال لي: "نبأ سار. إن صحة شارلوت قد تحسنت. ونبأ آخر سار.. إنها ستتزوج.. نعم، لقد ارتضت أن تكون زوجة لمسيو دي بلان الذي أبت أن تتزوج منه قبلًا، وهي الآن راضية عنه كل الرضا". ومضى في كلامه، معرجًا على نفسه، كعادته المألوفة فقال: "أجل، هذا نبأ سار، فأنت ترى أني أصبحت في آخر مرحلة من مراحل العمر".

ولقد كان في وسعه أن يفيض في الكلام عن آلامه الموهومة، وأمراضه المزعومة، وأن يسهب ما شاء أن يسهب، في التحدث عن معدته ونقرسه وأمعائه وكليتيه ورأسه، فما كنت لأصغي إليه إلا كما يصغي المحكوم عليه إلى سجانه. وتمثلت الحقيقة في تلك اللحظة أمام عيني هائلة رهيبة. وأنت الذي كتبت الصفحات الرائعة عن الغيرة والأثر الدامي الذي تتركه في خيال العاشق حين يمر بخاطره أن

خصمه قد داعب من يتعشقها، تستطيع أن تقدر أي سم أفرغه ذاك النبا في جرح قلبي. فلقد مضى شهر مايو، وانقضى من بعده يونية، وكر في أثرهما يوليو وأغسطس وسبتمبر ـ مضى حوالي خمسة أشهر منذ سافرت شارلوت، وهذا الجرح، بدل أن يلتئم، أخذ يتسع شيئًا فشيئًا، ويتسمم رويدًا رويدًا، حتى مسه النبأ الأخير، فأجهز عليّ. حتى ذاك العزاء القاسى. أفلا يدلني هذا الزواج على أنها قد برئت من حبها لي، على حين أني ما زلت أتهالك وجدًا عليها؟ وثارت ثائرتي حين ذكرت أن ذاك الحب الوليد الناشئ، قد انتزع مني انتزاعًا، في الساعة التي كنت أستطيع أن أتعهد حتى ينمو ويترعرع، فأجني ثماره الناضجة.

وأنحيت على نفسي باللائمة إذ لم أهجر كل شيء بعد رحيل شارلوت، ولم أتبعها رغم المال الضئيل الذي أملكه. لكن سبق السيف العذل. ولقد أراها في باريس، إذ كنت أعلم أن المسيو دي بلان يمضي إجازته فيها، تستقبل خطيبها في شبه خلوة ترتفع فيها الكلفة، تحت سمع المركيزة وبصرها. وأن ابتسامات شارلوت التي تشع نورًا، ونظراتها التي تفيض عطفًا وحنانًا، ووجهها الذي يتدفق حياء وعفافًا، وإيماءاته الحلوة، وصوتها العذب ـ كل هذا قد بات ملكًا لذاك الرجل. وهل من شك في أنها تحبه، بعد أن رضيت الزواج منه؟ وبدا لي المسيو دي بلان في صورة الكونت أندريه. وشعرت بأثر هذا الأخير في مسألة الزواج. فتأججت نيران الحقد عليه، وعلى خطيب أخته، وشملت هذين الضابطين النبيلين بكراهيتي وبغضي.

وما برحت أحمل ذاك الغضب الصبياني الفارغ فأختلف إلى الغابة. وكانت الطيور تتجمع تأهبًا للرحيل. فقد بدأ عهد الصيد. وباتت تروعها طلقات الصيادين. فتطير كما طار العصفور الذي شغلت باصطياده زمانًا. ورأيت الأعناب قطوفها دانية، فذكرت أني حرمت الثمرة ساعة نضوجها. وكذلك كنت أنقب في ثنايا الطبيعة عن رموز لحبي. وكأن آلامي قد أبرأتني من فلسفتي إلى حين، فَصرت نهبًا مقسمًا للذكريات تارة واليأس طورًا، كما كنت في تلك الأيام الأخيرة لانقضاء عهد التدريس. وفي الواقع، فقد أعلن المركيز عزمه على تقريب يوم رحيله وقال لي وقد نسي مرضه واستخفه الطرب:

ـ "إني أحب صهري الجديد حبًّا يقرب من العبادة.. وكنت أود أن تعرفه.. إنه وفي، مخلص، شجاع، طيب القلب، عزيز النفس، تجري في عروقه دماء النبل والشرف. وأخيرًا فهل تفهم أحوال النساء؟ هاك واحدة منهن ليست أقلهن عقلًا، وأضعفهن إدراكًا. تقدم إليها من عامين، فقالت، كلا. فطار صواب ابني، ولم يعد إلينا إلا وهو بين الحياة والموت. ثم بعد الرفض القبول، وبعد كلا، نعم.. ولعلك تعلم أني ظننت دائمًا أن بعض الحب هو منشأ مرضها العصبي.. وكنت أقول لنفسي: إنها تحب شخصًا.. ولقد كان هو.. وما عسى أن يحصل لو أنه رغب عن زواجها؟"

هذا ما وعته الذاكرة من محاضرة المركيز. على أنه يوضح لك كيف أدمت الحادثات قلبي. كلا لم يكن المسيو دي بلان هو الذي أحبته شارلوت. على أنها أحبت. ما في ذلك شك ولا ريب. ولقد ضرب الدهر بيننا بضرباته، فافترق مصيرها عن مصيري، وإلى الأبد!

وسيحيا البارون دي بلان حياة النعيم والخيلاء في باريس، فتتسع مسافة الخلف بين نعيمه وشقائي. فما كنت أجهل حياتي المقبلة. فقد تمثلت لي حياتي في الغرفة الصغيرة بشارع بيار. وتراءت أمامي الطرق الثلاثة المفضية إلى الجامعة. وكأني كنت أجتاز دار المجمع العلمي، فأبلغ قاعة المحاضرات، فأستمع إلى الأساتذة وهم يناقشون رسائل الطامحين لنيل الإجازات العلمية والأدبية. وأظل في الجامعة ساعة ونصف الساعة ثم أنقلب إلى بيتي، حاملًا حقيبتي على ذراعي. وأبقى على تلك الحال عامًا كاملًا، إذ لم أكن قد أخذت الأهبة لتأدية الامتحان لنيل إجازة الآداب. وكنت أتمثل أبوي إميل الصغير يطلان من النافذة، والمسيو ليماسيه يطالع الصحف في جانب القهوة، والناس يغدون ويروحون، والسيارات العامة تنساب في الطرقات. نعم، لقد انحدرت، يا أستاذي العزيز، إلى مستوى تلك العقول التي تتشبث بمظهر الحياة الخارجي فلا تبلغ روحها، ولا تنفذ إلى صميمها.

وفقدت إيماني القديم بسمو العلم وتفوقه، حيث تكفي غرفة

صغيرة لا تجاوز مساحتها ثلاثة أمتار مربعة، يشرف منها سبينوزا أو أدريان سكست على العالم، فيتفهمه ثم يتملكه. آه! لقد كنت وضيعًا في فترة الطماعية العاجزة، والحب المقهور! ولكم تسخطت على تلك العلوم التجريدية التي سأستأنف دراستها. ولكم وددت اليوم أن يكون ذلك مصيري، وأن أكون الطالب الفقير المنتسب إلى جامعة الآداب في كليرمونت، المقيم لدى والد إميل تلميذ ليماسيه عابر الطرقات الحالكة الظلام وهو عابس متهجم، على أن أكون بريئًا! بريئًا! وأن لا أكون ذاك الذي اجتاز ما اجتزت، وما ينبغي أن أفضي به.

الأزمة الثالثة

شعر لوسيان بألم، في غضون شهر سبتمبر، عزاه الطبيب في بادئ الأمر إلى مجرد إصابته بالبرد. وما مضى يومان حتى تضاعفت أعراض المرض. فاستقدموا طبيبين من كليرمونت على عجل قالا إنه مصاب بحمى لا تخشى عواقبها. ولو لم أكن مأخوذًا بتلك الفكرة الثابتة، التي جعلتني في ذاك العهد كالمصاب بدخل في عقله، لملأت كراستي بالملحوظات. فما كان عليّ إلا أن أتابع تطورات عقل المركيز، والصراع الناشب في قلبه، بين مرضه وحبه الأبوي. فتارة كنت أراه، رغم آراء الأطباء المطمئنة، قلقًا على ولده، يسهر عليه طوال الليل. وطورًا كان يفزع من سريان العدوى إليه، فيلزم الفراش، ويشكو آلامًا وهمية، مترقبًا قدوم الطبيب. ولطالما حسب أن أعراض المرض خطيرة، حتى ليطلب أن يعوده الطبيب أولًا. ثم يتولاه الخجل من هذا الذعر المستولي عليه. ويتجلى فيه شرف المحتد. فينهض من فراشه، ويصب اللعنات على الضعف الذي يجره السن في ذيوله، ثم يسارع إلى وسادة ابنه. وكان أكبر همه أن يخفي على المركيزة كما يخفي على شارلوت والكونت أندريه مرض الغلام. على أنه، بعد أسبوعين قضاهما موزعًا بين الغيرة والفزع، خمدت همته، ونفد

نشاطه، فشعر بالحاجة إلى وجود امرأته إلى جانبه لتشد أزره. وبلغ من اضطراب فكره أن عمد إلى أخذ مشورتي.

ـ وختم قوله بتوجيه ذاك السؤال إليَّ: "ألا ترى أن هذا هو واجبي؟"

إن هناك نفوسًا طبعت على الكذب، يا أستاذي العزيز، وبرعت في تبرير أقبح الأعمال بأشرف البواعث، ولو كنت في عدادها، لعزوت لنفسي الفضل في الإصرار على عدم دعوة المركيز لامرأته. حقًّا، لقد كنت أعلم مرمى جوابي، وأقدر مبلغ القرار الذي سيتخذه المسيو دي جوسات. كنت أعلم أنه إذا أخطرها المركيز فستقدم بأول قطار، وكنت أعرف شارلوت حتى أصبحت على ثقة بأنها قادمة معها لا محالة. وإذ ذاك أراها. فأوقظ الحب الناشئ في قلبها، وقد لمست دليله بيدي.

ولقد كنت أستطيع أن أعد نصيحتي إلى المركيز بأن يدع مدام دي جوسات هانئة في باريس، إخلاصًا من جانبي. نعم، لقد كان لي مظهر ذاك الإخلاص، ولماذا؟ لأني إذا لم أكن مقتنعًا بأن لكل سبب مسببًا، وأن كل إخلاص تشوبه الأنانية، لجاهرت بأن من أبشع الأمور أن أستغل أنبل شعور في سبيل عاطفة مجرمة، وأسخر لأهوائي شعور أخت حيال أخيها. وإليك الحقيقة المجردة.

لقد كنت على يقين، حين حاولت أن أصرف المركيز عن فكرته، أن كل مجهود في سبيل الاستيلاء على قلب شارلوت، ذاهب في

الهواء، وكنت أرقب في ثنايا تلك العودة إذلالًا محققًا لكبريائي، ولشد ما ضعضعت قواي تلك الحرب النفسية التي ظلت مشبوبة النيران طوال تلك الشهور، حتى اختلقت جدتي، وأطفـأت شعلة ذكائي، فلم أعد قادرًا على تدبير خطط جديدة، وما كان لي فضل ما في أن أصور للمركيز المضار، بل المخاطر التي يمكن أن تنجم عن إقامة هاتين السيدتين بالقصر، على كثب من مريض قد تسري عدوى مرضه إليهما.

ـ فأجابني: "وأنا؟ أو لست أعرض نفسي في كل حين؟ ولكنك على حق فيما يختص بشارلوت، وسأكتب أني لا أود حضورها".

ـ ومضى يومان، ثم تلقى المركيز برقية فقال لي: "آه! يا جرسلو، ذلك ما صنعتا بي: اقرأ". وقدم لي البرقية المؤذنة بقدوم الآنسة شارلوت مع أمها، وقال بصوت متهدج: "من الطبيعي أنها آثرت الحضور دون أن تفكر في أني لست بحاجة إلى تلكم الانفعالات".

وكان المركيز يخاطبني على تلك الصورة لدى الساعة الثانية بعد الظهر. وكنت أعلم أن القطار القادم من باريس يقوم في الساعة الخامسة صباحًا. فذاك هو القطار الذي أخذته حين عودتي من الرحلة التي تعرفت إليك فيها. وقدرت أن مدام دي جوسات والآنسة شارلوت تستقلان العربة، فتبلغان القصر قبل الساعة العاشرة. فامضيت ليلة ليلاء إذ تجردت من سند الفلسفة. وأمسيت مخلوقًا فاقد الهمة،

مهزول الإرادة، ضحية كل صدمة، وفريسة كل هزة عصبية. على أن حسن التقدير هداني إلى حل موفق سعيد. فلقد أسلفت لك أن أجل تعاقدي ينتهي في ١٥ أكتوبر. وكنا في الخامس من ذاك الشهر. ودخل الغلام في دور النقاه. وأضحت أمه وأخته إلى جانبه، وبات في وسعي أن أنتحل أي عذر لأرجع إلى أهلي دون أن أشعر بشيء من وخز الضمير. أجل، لقد بات ذلك في وسعي، لا بل من واجبي ـ ضنًّا بكرامتي وإيثارًا لراحتي. ومضت ليلة لم أذق فيها طعم النوم. فلما أقبل الصباح صحت عزيمتي على الرحيل. ولمحت للمركيز بعزمي فلم يدعني أتم كلامي، إذ تملكه الاضطراب لقدوم ابنته:

ـ وقال لي: "حسن. فيما بعد، فيما بعد. أما الآن فليس في ذهني متسع للتفكير في شيء.. يا للضيق! لقد أدركتني الشيخوخة مسرعة.. ثم أتلقى الضربات تباعًا".

ومن يدري، فلعل مصيري كان معلقًا في ميزان القدر حين أبى المركيز أن يصغي إليّ. ولو أني خاطبته في تلك اللحظة، فضربنا موعدًا لرحيلي، لرأيتني مكرهًا عليه. على حين أن مجرد حضور شارلوت قد استبدل بالرحيل البقاء، كمصباح حمل إلى غرفة مظلمة، فأبدل بالظلمات النور في الحال. وأؤكد لك إني كنت على ثقة من أنها أصبحت لا تلقي إليّ بالًا، على حين أمسيت أجتاز أزمة نفسية مبعثها الكبرياء الجريح، والشهوة الجامحة، لا الحب الصادق، وما كدت

أراها تهبط من العربة، حتى تجلى لي كيف يثير حضوري اضطرابها، ويعصف حضورها برشدي. وتبينت أمرين: فأما أولهما فاستحالة مغادرتي القصر ما بقيت فيه. وأما ثانيهما فمعاناتها كما عانيت بل أشد. وإذن فلم يخطئ تقديري حين ألفيت الأزهار في المظروف غداة رحيلها. فقد كان في وسعها أن تفر من وجهي تحدوها شجاعة صادقة، وأن لا تجيب على رسائلي، بل لا تلقي عليها نظرة، وأن تعقد خطوبتها لتقيم بيننا سدًّا منيعًا، وتحفر هوة لا يمكن اجتيازها بحال، وأن تؤمن بينها وبين نفسها، أنها باتت لا تحبني، وأن تعود إلى القصر مليئة بذاك الايمان. على الرغم من كل ذلك، كانت تحبني.

وما كنت بحاجة، لأتعرف هذا الحب، أن أعمد إلى التحليل النفسي الذي طالما شغفت به، وكثيرًا ما خانني. فلقد قرأت ذاك الحب مسطورًا في عيني تلك البنية كما تقرأ أنت تلك الكلمات التي أسطرها إليك، رأيتها في ثياب السفر بيضاء مثل بياض الورق. وكان حقًّا عليّ أن أعلل ذاك الشحوب الذي عرا وجهها، بالسأم الذي تملكها طوال الليلة التي قضتها في عربة القطار، والاضطراب الذي استولى عليها لمرض أخيها. فلما التقت نظرتها بنظرتي، أحسست بالاضطراب في عينها. وكان يمكن أن يعلل ذلك بحيائها الذي خدش. وباتت ضعيفة متخاذلة. فلما صارت إلى البهو، خلعت معطفها، فرأيت أن ثوبها الذي عرفته في العام الماضي أصبح فضفاضًا عليها. لكن، ألم تكن مريضة؟ آه! لقد شعرت، أنا الذي طالما صدق طريقة البحث

الفلسفي، وآمن بأساليب الاستنتاج العلمي، والتدليل العقلي، بالقوة القاهرة للغريزة! لقد كانت تحبني دائمًا. بل لقد تضاعف حبها لي. وماذا يضيرني إذا لم تكن قد صافحتني حين التقينا لأول مرة، أو خاطبتني إذ رأتنى في البهو، أو التفتت وهي ترتقي وأمها السلم.

لقد كانت تحبني. فلما ثبت ذاك اليقين في نفسي، بعد فترة قلق واضطراب، غمر شعور الفرح قلبي إلى حد الألم، فبادرت بالصعود إلى غرفتي. وماذا أنا صانع؟ فاعتمدت على مكتبي، وأسندت رأسي إلى يدي، وآليت ألا أرحل، وألا ينقضي ما بيني وبين شارلوت. وفي الحق فقد دنت الساعة التي يقال فيها إن الجهود التي بذلت من الجانبين، والنضال الذي جرى وراء ستار، والرغبات المكبوتة، قد أذنت أن تسوقنا إلى أعماق الهاوية. أجل، لقد كنت أشعر باقتراب مأساة فاجعة لا سبيل إلى الفرار منها. فقد كانت شارلوت مكرهة على أن تراني، ولقد التقينا لدى فراش أخيها يوم حضورها، إذ كان عليَّ أن أُلازم المريض الصغير حين وافت الساعة الحادية عشرة. نعم، لقد وجدتها تتحدث إليه، في الوقت الذي كانت المركيزة تسائل الأخت "أنكليه" فوقفتا تهمسان إلى جانب النافذة. ولقد كتموا عن لوسيان قدوم السيدتين، فما إن رآهما حتى ارتسمت على وجهه الشاحب، وبدت في إشاراته العصبية، أمارات الفرح المشوب بالتأثر والانفعال، شأن الذين يجتازون دور الإبلال من المرض. فحياني بابتسامة مرحة انطبعت على فمه، ثم أخذ بيدي وقال لأخته:

ـ "لو كنت تعلمين كم كان المسيو جرسلو يحنو عليّ طوال هذه الأيام!"

فلم تحر جوابًا. على أني رأيت يدها فوق الوسادة إلى جانب خد أخيها وهي ترتجف. وبذلت جهدًا كي تنظر إليّ نظرة لا تشف عن عواطفها. وكان لمظاهر التأثر والانفعال التي بدت على وجهي أثر في نفسها. واستشعرت أنها إذا لم تحفل بتلك العبارة البريئة التي انحدرت من فم الغلام الصغير، فقد تؤذي شعوري وتجرح عاطفتي. فقالت، وهي لا توجه القول إليّ بصوتها العذب الذي تختلج فيه خفقات قلب مضطرب:

ـ "نعم، إني لأعلم ذلك. وإني لأشكره عليه. ونحن جميعًا نشكره".

ولم تزد كلمة واحدة. وهذا الحديث البسيط جعل التأثر يأخذ منها كل مأخذ، فلو أني أخذت بيدها في تلك اللحظة لخرت مغشيًّا عليها. فتمتمت بجواب مبهم كقولي: "هذا طبيعي". أو بما يشابهه. وما استطعت أن أحتفظ برباطة جأشي. واستأنف لوسيان الحديث وهو لا يشعر بتبدل لهجة ولا باضطرابي.

ـ "أفلا يحضر أندريه ليراني؟"

ـ فأجابته: "إنك تعلم أنه باقٍ في فرقته".

ـ فقال الغلام: "ومكسيم؟"

وما كنت أجهل أن ذاك هو اسم خطيب الآنسة شارلوت. وما كادت تلك الكلمة تنحدر من فم المريض، حتى فارقها شحوب وجهها، وتدفق الدم في جوانبه. ثم كانت فترة صمت فقال الغلام وقد عرته الدهشة:

ـ "نعم، مكسيم؟ أفلا يأتي هو الآخر؟"

ـ فأجابت شارلوت: "إن مسيو دي بلان قد لحق بفرقته".

ـ وإذ نهضت بغتة فقد سألني لوسيان: "أو تصعد الآن يا مسيو جرسلو؟"

ـ فأجبته: "سأعود. فقد أغفلت كتابًا فوق مكتبي". ثم خرجت تاركًا شارلوت إلى جانب فراش أخيها شاحبة اللون، مطرقة الرأس.

آه! يا أستاذي، إني بحاجة لأن تصدقني فيما سأفضي به إليك. وأرجو ألا تشك في إخلاصي رغم تذبذب قلب استعصى فهمه حتى عليّ. وأؤكد أني ما كنت أصطنع الكذب في ذلك الحين. صدقني. فما كان في نهوضي شيء من التمثيل المسرحي حين ذكر أمامى اسم الرجل الذي بات مالكًا لشارلوت. وما فاضت دموعي تمثيلًا حين اجتزت الباب. ولا ذرفت عيناي تصنعًا طوال الليلة التي قضيتها مسهّد الجفن. لا يطمئن جنبي إلى مضجع، ولا سالت عبراتي تكلفًا

إذ ملك اليأس قلبي حين تجلت أمام عيني تلك الحقيقة الهائلة الرهيبة وهي: أنها تحبني وأحبها. ولكن لن تكون لي، ولن أكون لها. وما كان ألمي هزلًا حين كنت أشعر بالألم لمرآها.

إن وجهها المهزول، وطيفها الناحل، وجفونها الفياضة بالألم، كل ذلك بات كفيلًا باثارة الاضطراب في نفسي. وإن شحوب لونها كان يحزن قلبي، وضمور خصرها يثير غرامي، وكأنما كانت عيناها تقول: "لا تتكلم.. إني أعلم أنك تعس مثلي.. وأن من القسوة، لا بل من من تحجر القلب، أن تلوم، أو تشكو، أو تكشف عن جرحك. "قل إني كنت حسن النية خلال تلك الأيام، وإلا لما تركتها تمر دون أن أقدم، وقد كانت الساعات الباقية لي معدودة. على أني لا أذكر عزمًا عقدته، أو خطة أحكمت تدبيرها. وإن أذكر فلا أذكر إلا مشاعر مضطربة، وآلامًا ممضة، وددت أن أضع حدًّا لها، فآثرت الموت على الحياة، وفكرت في الانتحار.

فأنت ترى أني كنت أحب حبًّا صادقًا في تلك اللحظات. فقد ذابت جهودي وسط لهيب تلك العاطفة كما يذوب الرصاص في الموقد. وأصبحت أوثر الاستشهاد في ذاك السبيل. وما كان خاطر الموت الذي خطر لي، وتمخضت عنه أعماق نفسي، ولا كان تهالكي على أن أصبح تحت أطباق الثرى جسدًا هامدًا، إلا نتيجة محتومة لمرض الحب الذي أبدعت، يا أستاذي العزيز، في دراسته أيما إبداع. وإن

أنس لا أنس إشارتك إلى أن غريزة التدمير تتمشى في نفس الإنسان جنبًا إلى جنب مع غريزة الجنس. ولقد تجلى ذلك لناظري من السأم الذي لا نهاية له، السأم من أن يشعر المرء دون أن يجد السبيل إلى التعبير عن شعوره. ولو شئت الدليل عليه، لوجدته في ذاك الألم الذي كان يشع من عيني شارلوت حين كانت تلتقي نظراتها بنظراتي.

وما كنا على انفراد أبدًا، اللهم إلا في قاعة الاستقبال، بضع لحظات يسود خلالها صمت عميق. وكان يستحيل الكلام كما يستحيل على المصاب بالشلل أن يحرك قدميه. وما كان يكفي مجهود فوق طاقة البشر لأن يحل عقدة الصمت. وإذا فاض الشعور تعذر حمله إلى آخر. وإذ ذاك يشعر الإنسان بأنه سجين نفسه، فيؤثر أن يفر من السجن، ويلقي بنفسه في هاوية الموت. وكذلك أحببت أن أطبع شارلوت بأثر لا يُمحى، وأن أبرهن لها على حب لا يطغى عليه حنان زوجها المقبل، ولا مظاهر البيئة التي ستعيش فيها. "إذا مت يأسًا من لقائها إلى الأبد، فقد وجب أن تذكر ذاك المدرس البسيط، ذاك الريفي الصغير الفقير، الذي يضحي بنفسه في سبيل غرامه!".

ويلوح لي أني غرقت في بحار تلك التأملات. وتراني أقول: "يلوح لي" فالحق أني لم أستطع أن أفهم نفسي في تلك الفترة، وكيف السبيل إلى ذلك وقد اضطربت في نيران حمى عنيفة، وفنيت في مأساة فاجعة. وما كدت أتبين في بيداء الفكر ومجاهل الرأي هذا

الذي أسميته "الإيحاء الذاتي". وكأنما أصبحت تحت سلطان التنويم المغناطيسي الذي اصطنعته بنفسي، وأمسى مثلي مثل الذي يمشي وهو نائم، فما أدري كيف اعتزمت أن أجهزعلى نفسي في يوم وساعة محددة، فقصدت إلى الصيدلي فابتعت زجاجة السم. وما كنت وأنا أعد العدة تحت سلطان ذاك العزم أرجو شيئًا أو أحسب حساب شيء. فقد ثارت بين جوانحي قوة خارجة عن نطاق ضميري. كلا. وكأنما انتزعت من نفسي شخصًا يفكر وآخر يعمل. وستجد ملحوظة عن ذاك البحث في ورقة مودعة في كتاب "برييردى بواسمونت" عن الانتحار ـ وكأني في حلم اليقظة حين كنت أتخذ الأهبة للانتحار. وإني لأعزو تلك الظواهر الغريبة إلى اضطراب عصبي يبلغ حد الجنون، منشأه الضرر الناجم عن الفكرة الثابتة. وخطر لي في صباح اليوم الذي اخترته لإنفاذ عزمي أن أقوم بالتجربة الأخيرة لدى شارلوت. فجلست إلى مكتبي لأكتب إليها كلمة الوداع الأخير. وتراءت لي وهي تتلو ذاك الكتاب، فتساءلت: "ترى ماذا تصنع؟" أمن المستطاع ألا تتأثر وهي تشهد عزمي على الانتحار؟ أفما تسارع كي تحول دونه؟

نعم، إنها ستبادر بالحضور إلى غرفتي وستجدني جثة هامدة.. اللهم إلا إذا تريثت في القضاء على نفسي حتى أرى نتيجة هذه التجربة الأخيرة. وكذلك انبعث الأمل في الساعة الأخيرة فقلت: "لنجرب". وصحت عزيمتي على أن أتجرع السم إذا لم تحضر إليّ في منتصف الليل.

ولقد درست آثاره، فعلمت أنه يقضي على من يتجرعه في الحال، وبذلك لا تطول فترة آلامي.

ومن عجب أني قضيت ذاك اليوم في هدوء وسكون. ولقد أحسست كأني ألقيت عبئًا يثقل كاهلي، وأزحت كابوسًا يجثم فوق صدري. ولم يساورني القلق إلا في الساعة العاشرة حين وضعت الخطاب على المائدة في غرفة الفتاة.

وفي منتصف الساعة الحادية عشرة شعرت بصعود المركيز والمركيزة ومعهما شارلوت. ولبثوا يتحدثون برهة ثم تبادلوا التحيات، وذهب كل إلى غرفته.. وأقبلت الساعة الحادية عشرة.. فالحادية عشرة والربع. ولم يبد شيء. وظللت أنظر إلى ساعتي وهي موضوعة أمامي إلى جانب الخطابات الثلاثة التي أعددتها، لمسيو دي جوسات، ولأمي، ولك يا أستاذي العزيز. وكان قلبي يخفق حتى كاد ينشق صدري. على أن إرادتى ظلت ثابتة لا تتزعزع.

ولقد صارحت الآنسة شارلوت بأنها لن تراني في الغد. وكنت موقنًا بأني لن أتراجع عن عزمي إذا... وما اجترأت على أن أفتش عن الأمل الذي ينطوي تحت كلمة "إذا". ولبثت أرقب "إبرة الثوانى" في سيرها. وأعد الوقت، بطريقة آلية، ولكن في غاية الضبط والإتقان: "سأرى إبرة الثواني تدور مرات عدة، قبل أن ينتصف الليل، فأجهز على نفسي". ثم شعرت بوقع أقدام فوق السلم، خفية مترفقة، تنم عن

انفعال شديد، فقطعت عليّ سبيل حسابي. وظلت تلك الخطوات تدنو. فوقفت بباب غرفتي. ففتح الباب فجأة. فرأيت شارلوت أمامي.

فنهضت من مكاني. ولبثنا وقوفًا، وجهًا لوجه. وكأنما أحست هول ما صنعت، فاكفهر وجهها، وامتقع لونها، وأبرقت عيناها. وتجلت في سحنتها هزيمة الإرادة أمام سلطان العاطفة. وأكبر الظن أنها تهيأت للنوم ثم نهضت من نومها، فقد كان شعرها مرسلًا، بدل أن يكون معقوصًا خلف رأسها. وارتدت رداء الغرفة. ووضعت قدميها عاريتين في حذائها، وهي لا تدري شأن من تملكه الاضطراب.

وبديهي أنها ضاقت صبرًا باحتمال الألم، فوثبت من فراشها وسارعت إلى غرفتي. وما خشيت أن أظن بها الظنون، ولا حفلت بما يمكن أن أقوله لها. وقد آمنت بكتابي فبادرت بالقدوم، وهي فريسة لأشد ألوان الاضطراب.

وما لبثت بعد ذاك الصمت أن قالت لي في صوت متهدج "آه! حمدًا لله وشكرًا، فلم أصل بعد فوات الوقت.. لقد اعتقدت أنك ميت! آه! يا للهول! لكن لقد انقضى كل شيء، أليس كذلك؟ قل إنك ستطيعني، قل إنك لن تقضي على حياتك، أقسم، أقسم لي".

وأخذت يدي بين يديها وكأنها تتوسل إليّ. وكانت أصابعها مثلجة. وبات غشيانها غرفتي على تلك الصورة موقفًا حاسمًا في تاريخ حبنا. لا بل آية حية على ذلك الحب. وفي تلك اللحظة بلغ مني

التأثر كل مبلغ، حتى لم أعد أدرك ما أصنع فلم أجبها، ولكني أذكر أني أخذتها بين ذراعي وأنا أبكي، وأن فمي التمس السبيل إلى فمها، وأني وسط تلك الدموع قد طبعت ثغرها بقبلة حارة صادقة. وكانت برهة ذهول وسعادة. ثم ما لبثت أن انتزعت نفسها من بين ذراعي، وكأنما راعها أن تأذن لي في ضمها وتقبيلها، فاصطبغ وجهها حياءً وخجلًا.

ـ قالت: "تعسًا لي، يجب أن أذهب! دعني أذهب! لا تدن مني".

ـ فأجبتها: "أنت ترين أني ميت لا محالة، إذا كنت لا تحبينني، وستصبحين زوجة لغيري، وكل شيء يفرق بيننا، وإلى الأبد".

وتناولت الزجاجة من فوق المائدة وأريتها إياها على ضوء المصباح.

ـ واستأنفت القول: "إن ربع ما بهذه الزجاجة علاج لآلامي. فإذا انقضت خمس دقائق، فقد قضي الأمر". ثم قلت في هوادة ورفق دون أن تبدو مني إشارة يمكن أن تحملها على أن تدافع عن نفسها: "اذهبي، وشكرًا لك على حضورك. فلا يكاد يمضي ربع ساعة حتى أكون قد وضعت حدًّا لآلامي، إذ حرمت منك طوال تلك الشهور.. هيا فاذهبي، الوداع، لا تسلبيني شجاعتي".

وما لبثت أن رأت ذاك السائل الأسود في ضوء المصباح، حتى ارتعدت فرائصها. فمدت يدها إليّ، فانتزعت الزجاجة قائلة: "لا!

لا!" ثم نظرت إليها، وقرأت ما كتب على غلافها الأحمر، فجزعت. وزاد وجهها اكفهرارًا، وقطبت حاجبيها. واختلجت شفتاها. وباتت عيناها تشفان عن القلق؛ وقالت في صوت متهدج وكأنما كانت هناك قوة قاهرة تنتزع منها الكلمات انتزاعًا:

ـ "وأنا الأخرى قد احتملت آلامي حتى أعياني احتمالها. وغالبت الشعور فغلبني. وناضلت حتى لم يبق إلى النضال سبيل.. كلا". ثم مضت في كلامها، وتقدمت نحوي، وأخذت بذراعي: "لن تموت وحدك، لن تموت وحدك.. سنموت معًا. فبعد الذي صنعت، لم يبق إلا هذا". وهمت برفع الزجاجة إلى فمها. فانتزعتها منها. فقالت وهي تتبسم ابتسامة تشف عن الجنون: "أموت، نعم، أموت، على كثب منك، ومعك". ودنت مني ووضعت رأسها على كتفي إلى حد أني أحسست بنعومة شعرها فوق خدي. "هكذا.. آه! إني أحبك من عهد بعيد.. والآن أستطيع أن أفضي إليك بذاك الحب، إذ قد جعلت حياتي ثمنًا له.. أتود أن تأخذني معك، فنذهب نحن الاثنان، نحن الاثنان؟"

ـ فأجبتها: "نعم، سنموت معًا. وأقسم لك على ذلك. لكن. ينبغي ألا نموت في الحال.. آه! دعي لي الوقت الذي أشعر فيه بأنك تحبينني". والتقى فمي بفمها، وفي تلك المرة كانت تبادلني القبلات. فضممتها إلى صدري. فاستسلمت أيما استسلام.. آه! لتلك القبلات

الحارة التي تفيض من الروح على الجسم، فتكسب الحب معنى ساميًا، وتلاشى الماضى، والحاضر، والمستقبل، فلا تدع مكانًا إلا إليه.

لقد أسلمت تلك العذراء نفسها إليّ، بكل ما فيها من صون وعفاف. وظلت تحدثني حديث شعورها. فقالت إنها أحبت للنظره الأولى، وهي لا تدري. وآلمها حزني وما أفضيت به إليها. وودت لو باتت صاحبة لي تروح عن نفسي. وأذهلتها مكاشفتي لها بالحب، فأقسمت أن تعمق الهوة بيننا، حتى لا يمكن اجتيازها بحال. وحدثتني حديث صراعها حين كانت تتلقى رسائلي، وكيف كانت تجهد ألا تتلوها، فتذهب جهودها عبثًا، وكيف دفعها اليأس إلى الخطبة، رجاء أن تقيم بيننا سدًّا منيعًا. ثم عودتها وما أعقبها. وترجمت عن شعورها بعبارة من تلكم العبارات التي تنحدر من الروح كما تنحدر الدموع من العين فقالت: "لو أني استطعت أن أمحو صحيفة تلك الآلام ما لها طاوعتني نفسي على ذلك، إذ كنت بحاجة لأن أشعر بأني عشت بك ولك".

وقالت: "دعني أموت أولًا، كيلا أراك تتألم". ثم طوقتني بشعرها، فتراءت لي كالشهيدة، ولمحت في وجهها مزيجًا من الفرح والألم والحماس وتأنيب الضمير. وإذ التزمت جانب الصمت وهي مضمومة إلى صدري فانية فيَّ وفمها إلى فمي ونحن متعانقان، كنا

نسمع الرياح تهب حزينة فتصطفق بالنوافذ الموصدة، وكان القصر في صمته كالقبر الذي يقودنا الحب إليه.

تلك هي الحلقة الغريبة في سلسلة المغامرة، والمرحلة الحاسمة في مراحل المأساة، والتي سيقول الناس عنها إنها تدعو إلى الخجل، وتبعث على الخزي. على أن تلك الكلمات، فيما بينك وبيني، يا أستاذي العزيز، لا طائل تحتها، ولا غناء فيها، وسأجد في نفسي الشجاعة لأن أفضي إليك بكل ما جرى مذ تلك الساعة.

قلت لك إني كنت جادًّا غير هازل حين اعتزمت الانتحار، فابتعت مادة السم، فكتبت إلى شارلوت أصارحها بعزمي. وما كنت أبغي من وراء ذلك غرضًا، أو أمثل شعورًا مسرحيًّا. فلما ارتمت بين ذراعي وصاحت: "لنمت معًا؟" أجبتها: "لنمت معًا" يحدوني الإخلاص وحسن النية. ولقد بدا لي طبيعيًّا هينًا ليِّنًا أن نقضي معًا. على أنك وقد أوضحت كيف تتبخر الأوهام بعد إشباع العاطفة، لا تعدني مسخًا دميمًا إذا كاشفتك بأن أوهامي قد تبددت. وأفقت من نشوتي بعد أن أسلمت شارلوت نفسها إليّ.

بتنا ضجيعين، يلفنا الحب من فرع إلى قدم. وظللت أنظر إلى شارلوت، فأذكر أن ذاك الجسم الذي ينبض بالحياة، سيصبح بعد ساعات جثة هامدة. وتسلط الأرض على ذلك الثغر الذي لا يزال يختلج تحت حرارة القبلات. وتطبق إلى الأبد هاتان العينان اللتان

تفيضان حبًّا وحنانًا. وتقضي تلك الروح التي ملأها حبي! ورحت أردد تلك الكلمات: "جثة هامدة، جثة هامدة". فتمثل لي شبح الموت الرهيب.

إذ كان الحب يبسط سلطانه عليّ، بت أستقبل الموت بسَّامًا. ولا أفرق من ظلمة القبر. ولا أفزع من المجهول. ولا أجزع من العدم. فلما خمدت جذوته وفترت حرارته تراءى لي هول الموت. فتراجعت.. وظلت شارلوت تطبق عينيها. وكان شحوبها ونحولها ينبئاني بما احتملت ثم أجهز عليها أو أعاونها على أن تجهز على نفسها ونقضي معًا.. حينذاك ارتعت فارتعدت. وما أدري أجزعت من أجلها، أم فزعت من أجل نفسي، أم مشى الخوف في صدري من أجلنا معًا. وإنما الذي أدريه أني أصبحت كمثل الذين يعالجون سكرات الموت، فيلقون على الدنيا نظرة أخيرة، ويذكرون ما نعموا به، وما أشرأبت آمالهم إليه. وكذلك ذكرت الحياة التي ارتقبتها، والآمال التي شيدت صروحها.

وتمثلت لي في خلوتك، يا أستاذي العزيز، تطلق لفكرك العنان، فاتسعت أمامي آفاق التفكير. وقلت كيف أضحي بمباحثي النفسية التي حرصت عليها زمانًا، ثم أغفلتها حينًا. وفي سبيل من أبذل ذلك الرأس الذي طالما اعتززت به، وهاته الشخصية التي كثيرًا ما فاخرت بقوتها؟ ولماذا أطوح بتلك الكنوز جميعًا؟ أفي سبيل الوعد الذي بذلته والعهد

الذي قطعته؟ ولكن الوعد أملته ثورة نفسية، والعهد أوحى به هوى من أهواء النفس الجامحة. وإنما كان للانتحار محل حين تولاني اليأس من حب شارلوت. فأما الآن، فهي تحبني وأحبها، وهي لي وأنا لها. ومن ذا يحول بيننا وبين الهرب إذا أقبل الغد بعد تلك الليلة التي نعمنا بها.

نعم، من ذا يأخذ علينا السبيل، ونحن حران طليقان، لا تعوزنا وثبة الشباب وحرارته؟ وما لبثت أن ذكرت فراري مع شارلوت حتى تراءى لي شبح الكونت أندريه. وأثارت تلك الذكرى في نفسي شعور العزة. أجل لقد نظرت إلى شارلوت من جديد، فامتلأت نفسي كبرياء. فالخصومة التي مبعثها الحسد بين أخيها وبيني قد توجت بالظفر. وظللت أنظر إليها، وتلك الخواطر تزدحم في رأسي فأشعر بأني استرددت حريتي. وتدفقت الحياة في جوانب نفسي طليقة حرة، كما يتدفق ماء النهر أزيلت من طريقه الحواجز والسدود.

وأخذت شارلوت سنة من النوم. وكنت أسمع أنفاسها تتردد. ثم هبت من نومها مذعورة:

ـ فقالت: "آه! هل أنت هنا، هل أنت هنا. لقد غبت عن صوابي ورأيت في نومي.. آه! يا له من حلم! لقد رأيت أخي يتوثب عليك.. يا له من حلم فظيع!"

وطبعت على فمي قبلة، وإذ ذاك دقت الساعة، فاستمعت إلى دقاتها، وأحصت لغاية الرابعة.

ـ فقالت: "الساعة الرابعة، لقد حان الوقت. الوداع، يا حبيبي، الوداع".

وعانقتني من جديد، وبدت على وجهها مظاهر الثبات ورباطة الجأش.

ـ وقالت في سكون: "هات السم".

وظللت جامدًا لا أبدي حراكًا، ولا أحير جوابًا.

ـ فمضت تقول: "أتخشى عليّ. إني أعرف كيف أموت.. ناولني".

فنهضت دون أن أجيب. وكانت جاثية على ركبتيها، وقد ضمت يديها، دون نظر إليّ. أفكانت تصلي؟ أكان ذاك هو الجهد الأخير الذي تبذله نفس غضة شابة لتنتزع حب الحياة من أعماقها، وتستأصل جذور التعلق بالدنيا، وهي خليقة أن تتأصل في قلب فتاة بلغت عشرين ربيعًا؟

وليس أدل على ثبات جناني ورباطة جأشي من هذا البيان الصغير في مبناه، العظيم الدلالة في معناه ومغزاه: فقد أصلحت شأني، تأهبًا للمشادة التي كنت أرقب وقوعها. فقد صح عزمي على أن أحول دون هذا الانتحار المزدوج. فتناولت زجاجة السم بثبات، فأودعتها القمطر، وأغلقته بالمفتاح. ولم تلتفت شارلوت إلى تلك الحركة، ولكن طال عليها الوقت، فألحت وألحفت، ونظرت إليَّ:

ـ فقالت: "إني على تمام الأهبة".

ورأت يدي فارغتين، فاربد وجهها، وبدت عليه أمارات الألم، وقالت بصوت تمازجه قسوة، ولهجة تخالطها جفوة:

ـ "السم. أعطني السم". ثم أضافت بصوت ضعيف، وكأنما تجيب نفسها، عن خاطر خطر لها: "كلا. ليس هذا بممكن".

فجثوت على ركبتي، وأخذت بيديها، وصحت: "كلا، كلا. إنك تقولين حقًّا، فليس هذا بممكن.. فلا أستطيع أن أدعك تموتين أمامي وتقتلين نفسك في سبيلي.. إني أتوسل إليك يا شارلوت أن لا تقدمي على ذاك العمل المشؤوم.. إني كنت مجنونًا حين ابتعت السم، فقد اعتقدت أنك لا تحبينني.. فأردت أن أجهز على نفسي.. آه! وكان يحدوني الإخلاص فيما أعددت العدة له! والآن وأنت تحبينني، وأنا أشهد ذاك الحب، وقد أسلمت نفسك إليَّ، فلا أستطيع، فلا أريد.. لنحيا يا عزيزتي، لنحيا، وافقيني على أن نحيا.. وسنسافر معًا إن شئت، ومن حقنا أن نتزوج. فنحن حران طليقان.. وإذا لم تشائي، وإذا كان عراك ندم على ما وقع، فلأكن أنا الضحية، ولأكن وحدي الشهيد، وأقسم لك أني سأصير كأن لم أكن شيئًا مذكورًا، ولن أكدر عليك صفو حياتك، أو أثير غبارًا في جو راحتك، أو أبعث غمامة في سماء سعادتك.. فأما أن أعينك على أن تموتي، على أن تقتلي نفسك، أنت.. فلا تطلبي إليّ ذلك ولا تنظريه".

لست أدري ما مضى من الوقت وأنا أخاطبها على تلك الصورة، ولا أعلم ماذا قلت لها غير ذلك. ولبثت أرقب أن تبدو عليها مظاهر ضعف المرأة، وأن تقول "نعم" بدل "لا" فتكذب العين دعوى الفم فصمتت، وهي تمعن في النظر إليّ، وعيناها تبرقان وترعدان. وانتزعت يديها من بين يدي، وعقدت ذراعيها فوق صدرها، وقالت، حين فرغت من توسلي إليها، وقد كرهت أن تراني، واستنكرت أن تدنو مني:

ـ "وكذلك أنت لا تريد أن تحتفظ بكلمتك؟"

فتمتمت: "كلا، أنا لا أستطيع، أنا لا أستطيع... وما كنت أدري ما أقول".

ـ فألقت عليّ نظرة احتقار، وقالت وشفتاها تختلجان من الغضب: "آه! قل لي إذن أنك خائف! أعطنى السم. إني أرد إليك قولك.. سأموت وحدي.. ولكن كيف نصبت لي الفخ الذي أوقعتني فيه على تلك الصورة.. جبان! جبان! جبان!"

ولست أدري لماذا لم أثب تحت سلطان تلك الإهانة البالغة. وفيم كان إحجامى عن تناول زجاجة السم، وفيم كان قعودي عن رفعها إلى فمي فأتجرع ما فيها، قائلًا لها: "انظري، أترينني جبانًا". كلما فكرت في ذاك الموقف، أعياني فهمه، وحرت في تعليله، وبخاصة كلما ذكرت أن آيات الازدراء الساحق كانت مطبوعة على وجهها.

وعندي أن التعليل الصادق لذاك الموقف هو أني كنت في تلك اللحظة خائفًا وجلًا، أنا الذي أمشي الآن إلى الإعدام بخطى ثابتة، وألزم الصمت منذ ثلاثة أشهر، مقامرًا برأسي، مغامرًا بحياتي. ذلك بأني اليوم أستند إلى فكرة، وأرتكز على إرادة، على حين أني كنت أضطرب بين العواطف الثائرة، والمشاعر المهتاجة. فجثوت على ركبتي كأنما كنت عاجزًا عن الوقوف على قدمي، ولوحت برأسي وقلت: "لا، لا". وفي تلك المرة كانت هي التي لم تجب. ورأيتها تصف شعرها، وتضع قدميها في حذائها، وترتدي ثوبها الأبيض، ولبثت تدور بعينيها بحثًا وراء زجاجة السم، فلما لم ترها فوق المائدة سارت إلى الباب، فتوارت دون أن تلتفت، بعد أن رمتني كرة أخرى بتلك الكلمة الهائلة الرهيبة:

ـ "جبان! جبان!"

ودرت بنظري في الغرفة، فأيقنت أني لم أكن حالمًا. ثم ما لبث أن تولاني الفزع. فماذا أصنع إذا انقلبت شارلوت إلى غرفتها حانقة، تغلي مراجل غيظها، غاضبة تنفجر براكين حنقها، فقضت على حياتها؟ ولما بت فريسة ذاك الألم، اجترأت على أن أجتاز البهو، فأرقى السلم، حتى إذا بلغت غرفتها. تسمعت لأسمع حركة، أو أنينًا، أو إشارة تزيح الستار عن المأساة التي جرت خلف الباب، فأسارع إلى اقتحامه، وأبادر لإنقاذها. لم أسمع شيئًا. وبدت الحركة في الطابق

الأول. إذ استيقظ الخدم. فرجعت إلى غرفتي وارتديت ثيابي. وما وافت الساعة السادسة، حتى هبطت إلى الحديقة تحت نافذة الفتاة، فقد أشفقت أن تكون قذفت بنفسها من النافذة، فهوت إلى الأرض، مُهَشَّمة الأعضاء، محطمة الأشلاء. فرأيت نوافذها مغلقة، وأبصرت الورود في أرض الحديقة قد تفتحت أكمامها وازدهرت

وما أنس لا أنس، إذ قالت لي في تلك الليلة أنها كانت تشعر بغبطة لا تعادلها غبطة، حين تنظر إلى تلك الورود، فتنعم بمرآها وشذاها، فاقتطفت منها واحدة. ولكي أغالب الاضطراب الذي ساورني، رحت أضرب في الأرض على غير هدى وسط ضباب كثيف، في صباح يوم من شهر نوفمبر. ولقد أوغلت في السير، على أنه ما وافت الساعة الثامنة حتى كنت في قاعة الطعام بالقصر أتناول، أو على الصحيح، أتكلف تناول الفطور. وكنت أعلم أن في تلك اللحظة تدخل الخادمة إلى غرفة الآنسة شارلوت. فلو أن مكروهًا أصابها، لاستغاثت الخادمة في الحال. ولقد سرى عني حين رأيتها قادمة تحمل آنية الشاي! وشارلوت لم تقتل نفسها! فانبعث ميت الأمل في صدري، ولعلها قد فكرت، بعد أن هدأت ثائرة غضبها، فاستخلصت من إبائي أن أموت وأن أدعها تموت دليلًا على الحب. ولن ألبث حتى أعلم ذلك.

وما عليّ أن أنتظرها في غرفة أخيها الذي أوشك أن يجتاز دور النقاهة. وعلى الرغم من أنه كان محرومًا من الرياضة، فقد كانت تبدو

عليه دلائل المرح، كأنه طفل قد بعث إلى الحياة كرة أخرى. فتلقاني ذاك الصباح بأعظم مظاهر الترحيب، فتضاعف رجائي، وعسى أن يصل الغلام ما انقطع بين أخته وبيني، فما من شك في أن يدي الفتى والفتاة ترتبط حين تمر حول رأس بريء. على أن شارلوت ما كادت تبدو شاحبة اللون، متوسلة بآلام رأسها، لتنجو من مداعبة لوسيان، وعيناها ذابلتان، حتى أيقنت أني كنت مسرفًا في الأمل حين رجوت التفاهم معها. فحييتها فأبت أن ترد التحية. ولقد وجدتها تفيض حنانًا وعطفًا. وعرفت فيها نافرة. وشابة ملك الحب قلبها. والآن رأيت وجهها مقنعًا بقناع الزِّراية والاحتقار. آه! من كبرياء النبلاء! لقد قدرته في تلك اللحظة، وقدرت أن الصمت المنطوي على الازدراء، أقتل للنفوس من يد الجلاد. وامتلأت نفسي مرارة، فلم أشأ أن أرفع راية التسليم والاستسلام. وترقبتها، ذلك اليوم، لَعلِّي أراها، فأسمع كلمة تنحدر من فمها، ولو أنها إهانة جديدة تقذف بها في وجهي.

وفي اللحظة التي كانت تغشى غرفتها، وقت الأصيل، لترتدي ثيابها، قبل تناول طعام العشاء، أخذت الطريق إليها. فنحتني جانبًا، بإيماءة تشف عن الاحتقار، وعبارة تشعر بالقسوة قالت: "ما عدت أعرفك". ورأيت فمها يختلج غضبًا، وعيناها تنظر إليّ شزرًا، فلم أجد السبيل إلى كلمة أقولها لها. لقد حاكمتني فحكمت عليّ.

أجل لقد قضت عليّ. وكان الحكم قاسيًا، واحتماله شديدًا، إذ كنت به خليقًا. لقد غمرتني باحتقارها، لأنها رأتني أهاب الموت. وكان حقًّا، أني فزعت من ظلمة القبر حين رأيتها تسند رأسها إلى صدري. وما كان الخوف وحده ليصدني عن الانتحار معها، لولا أن امتزجت الشفقة عليها بطموحي كمفكر، لكن ما جدوى ذلك. لقد استسلمت إليّ تحت شرط، فأجبت على ذاك الشرط بكلمة "نعم". ثم عقبت عليها بكلمة "لا". على أن ما تدعوه، يا أستاذي العزيز، بكبرياء الرجل، كان قويًّا إلى حد أن فكرة امتلاك المرأة، والتسلط على روحها ومشاعرها، قد أشبع ذاك الكبرياء، حتى أن الإذلال الفظيع الناجم عن احتقار شارلوت لم ينل مني، كما نال صمتها بعد أن كاشفتها بحبي وفرارها من القصر وخطبتها. لقد كانت تغمرني باحتقارها. على أنها كانت لي وطوقتها بذراعي قبل أن يطوقها غيري. حقًّا لقد تألمت في الفترة التي انقضت بين تلك الليلة وبين رحيلي من القصر إلى غير عودة. على أنه لم يكن اليأس الذي تملكني طوال الصيف، ولا التسليم حين تألَّبت عليّ الخطوب، وتحالفت المصائب.

لست أزعم أني كنت سعيدًا، على أني كنت أشعر بالشبع يملأ جوانب نفسي، فاستطعت أن أنهض على قدمي وسط العاصفة وأتماسك خلال الأزمة النفسية. وإذ مرت شارلوت أمامي فلم تنظر إليّ إلا كما تنظر إلى شيء زري مهمل أغفله خادم، تأملتها وهي ترقى السلم، فتمثلتها وفمها على فمي وقد استسلمت إليّ. وما آلمني إلا

أن تنقضي تلك الليلة وأن لا تعود. ولو أتيحت لي كرة أخرى لكنت أبر بوعدي وأوفى بعهدي، وأتجرع السم طائعًا، وأرتضي الموت مختارًا، وأمشي إلى ظلمة القبر بسامًا. على أن تلك السعادة كانت حقًّا وصدقًا، وكان اليقين بها كفيلًا بإنقاذي من ضلال الماضي. وهل قبر ذاك الحب إلى غير بعث؟

إن موقف الآنسة شارلوت حيالي، وما صنعت بي، ليدل أصرح دلالة على أن الحب قد ملك قلبها. فهل من المستطاع أن تكون آثاره قد انمحت من ذاك القلب، وجذوته أخمدت في هذا الفؤاد؟ اليوم، وفي ضوء المأساة التي كانت خاتمة مشؤومة لتلك المغامرة، أستطيع أن أدرك أن الهوى لم يغادر هاته النفس التي تحلق في أجواء الخيال. حقًّا إنها لم تفكر لحظة واحدة في أن تكون زوجة لي وتنشئ عائلة معي. وما أقدمت على ما أقدمت عليه إلا ساعة غاب الصواب فانتزعها من الحياة انتزاعًا. لقد أحبت فيّ صورة رائعة ومثلًا أعلى. أحبت كائنًا يغايرني تمام المغايرة. فلما تبدت لها حقيقتي وتكشفت لها طبيعتي تبددت أوهامها وتناثرت أحلامها، وكرهتني بكل ما فيها من قوة للكره.

والطبائع التي تجنح للأوهام، وتنزع للخيال، تسرف في الحب والبغض معًا. وا أسفاه! إن دعوى إلمامي بعلم النفس، لم تكشف لي عن تطور تلك النفس في ذاك الحين. وما خطر بِبالى أنها ستحاول بأي

ثمن أن تزداد معرفة بدخيلتي، وأنها مسوقة باشمئزازها مني وتقززها من أساليبي ستعاملني كما تعامل طائفة القضاة جماعة المتهمين. وستحاول أن تطالع أوراقي، فلا يتراجع ضميرها أمام أي اعتبار.

ولم يمر بخاطري أنها لا تحتمل الحياة مشوبة بالعار، ولا تطيق العيش بعد أن خسرت أعز ما تملك، فأغفلت زجاجة السم الذي أبيته عليها. وكنت أعتقد أني دقيق الملاحظة، قوي المشاهدة، لأني أطيل التفكير. على أني كنت في اعتقادي واهمًا، وفي نظري مخدوعًا. فما كان ينبغي لي في ذاك العهد أن أتأمل، وإنما كان ينبغي لي أن أنظر.

وأمعنت في الضلال، فخيل إليّ أن شارلوت ما برحت تحبني رغم ازدرائها إياي، فحاولت أن أبعث الحب من مرقده، فكتبت إليها. فما راعني إلا أن أرى كتابي في ذات اليوم فوق مكتبي، ولم يفض غلافه.

فإذا أقبل الليل، تلمست الطريق إلى بابها فدعوتها. فألفيت الباب موصدًا محكم الإيصاد، ولم تلق دعوتي سميعًا أو مجيبًا. فأحببت أن أدنو منها مرة أخرى. فنحَّتني بيدها جانبًا دون أن تنظر إليّ.

فأخذت الإهانة من نفسي كل مأخذ، ولم أقتصد في البكاء حين ردتني ذاك الرد الذي يفيض زراية وازدراء. ثم اعتزمت أمرًا، فقد عاد إليّ قليل من عزمي القديم. وكان ينبغي أن أقدم على ما فكرت في الإقدام عليه. وأقول، كي أفضي بالحقيقة كاملة، أن قدوم مسيو دي بلان والكونت أندريه كان قد أعلن. فلم يدع ذاك النبأ محلًّا للتردد

والإحجام. فإن حضورهما معًا إبان نكبة حبي وإذلال كبريائى، لما يخرج عن طوق احتمالي. فهاك ما اعتزمت:

لقد رجاني المركيز أن أطيل إقامتي لغاية ١٥ نوفمبر؛ إذ نحن في الثالث منه. فأعلنت في صباح ذلك اليوم المشؤوم أني تلقيت من والدتي كتابًا يبعث على القلق. ثم أنبأت بورود برقية زادت في قلقي وضاعفت من مخاوفي. وطلبت إلى المسيو دي جوسات أن يأذن لي في السفر إلى كليرمونت صباح الغد. فإذا لم أعد، رجوت أن يتفضلوا بإرسال حاجاتي إليَّ. وقلت ذاك القول أمام شارلوت، وأنا على يقين بأنها ستحمله على محمله الصحيح: "سيذهب إلى غير عودة". وحسبت أن نبأ الفراق سيهز عواطفها، وأحببت أن أستغل تلك العواطف، فاجترأت على أن أكتب لها بطاقة تتضمن هذه العبارة: "إن من حقي أن أتحدث إليك للمرة الأخيرة إذ أزمعت أن أهجرك إلى الأبد. فسأحضر إليك في الساعة الحادية عشرة". وقصدت أن لا تعيد البطاقة إليّ دون أن تقرأها. فوضعتها مفتوحة فوق مائدة غرفتها، مقامرًا بنفسي، مغامرًا بشارلوت، إذا ألقت الخادمة نظرة على تلك البطاقة. آه! كم خفق قلبي حين وافت الساعة الحادية عشرة، فيممت شطر بابها، فوقفت بذلك الباب! ولم يك موصدًا. فأيقنت أنها ترقب حضوري. وأحسست للنظرة الأولى أن الصراع سيكون حادًّا عنيفًا. فلقد تجلى على وجهها أنها لم تدعني أحضر لتغفر لي. وكانت ترتدي ثوبًا قاتمًا. وألقت عليّ نظرة هائلة رهيبة.

ـ وما لبثت أن أوصدت الباب، ووقفت جامدًا، لا أتحرك، حتى قالت: "سيدي، إني لأجهل ما اعتزمت أن تقوله لي، إني لأجهله، ولا أود أن أعلمه.. وما أذنت لك في الدخول لأصغي إليك. وأقسم لك، وأني لأعرف كيف أحتفظ بكلامي ـ إنك إن خطوت خطوة، فحاولت أن تخاطبني، لأدعون من يقذف بك خارجًا، كما يقذف باللص".

وإذ قالت ذلك، وضعت أصبعها على الجرس الكهربائي. وكانت آيات العزم والتصميم بادية على جبهتها، وفمها، وإشارتها، وصوتها، حتى لقد رأيت أن ألزم جانب الصمت. ثم مضت تقول:

ـ "لقد حملتني، يا سيدي، على ارتكاب ثلاثة أفعال قبيحة.. فأما الأول، فالعذر فيه أنه ما كان يدور بخلدي أنك خليق بارتكاب العار الذي ارتكبته". ثم أضافت كأنما تخاطب نفسها: "ومع ذلك فسأكفر عنه.. وأما الثاني، فلن أتلمس له الأعذار". واصطبغ وجهها بصبغة الحياء والخجل. "لم أحتمل التفكير فيما صنعت. وأردت أن أستوثق من حقيقتك. أردت أن أعرفك.. وكنت قد قلت لي إنك تكتب مذكراتك اليومية. فوددت أن أقرأها.. ولقد قرأتها.. إذ دخلت غرفتك حين كنت غائبًا. ونقَّبت في أوراقك. وكسرت قفل كراسة.. نعم، لقد فعلت ذلك! فجوزيت عن فعلي، بأن طالعت في تلك الصفحات ما طالعت.. وأما الثالث.. فإذ أقوله لك، فإنما أوفي الدين الذي اشتركت فيه معك". وترددت: "لقد كتبت إلى أخي، تحت سلطان الغيظ الذي ملأ نفسي. إنه يعلم كل شيء".

ـ فصحت: "آه! إنك هالكة لا محالة".

ـ فقاطعتني، ووضعت يدها على الجرس من جديد: "أنت تعلم أني أقسمت، لا تنبس بكلمة واحدة.. فلست أستطيع أن أهلك أكثر مما هلكت". واستأنفت القول: "ولن يصنع كائن من كان، شيئًا لي أو عليّ. وسيعلم أخي ذلك، وما صحت عزيمتي عليه. فسيصله الخطاب غدًا صباحًا. ولقد رأيت من واجبي، أن أنذرك، ما دمت تحرص على حياتك. والآن، فاخرج من هنا".

ـ فتوسلت إليها قائلًا: "شارلوت".

ـ فنظرت إلى ساعة الحائط وقالت: "إذا انقضت دقيقة ولم تخرج فسأدعو".

كلمة الختام

فأطعت صاغرًا! وما وافت الساعة السادسة من صباح غد، حتى غادرت القصر، وأنا فريسة لأسوأ ضروب القلق، وشر ألوان الاضطراب. وحاولت عبثًا أن ألقي في روعي أن تلك المشادة لن يكون لها ما بعدها. وأن الكونت أندريه سيقدم فينقذها من إنفاذ خطة أملاها اليأس. وإنما هي نفسها ستتردد في اللحظة الأخيرة، فتقف بين الإقدام والإحجام. وأن حادثًا غير مرتقب سيحدث، فيحول بينها وبين الإجهاز على نفسها.. فمن يدري؟ وأما أن أتعلق بأذيال الفرار، وأتراجع أمام انتقام أخيها، فذلك ما لم يخطر لي ببال. فقد آليت ألا أدع أحدًا يقدم على إذلال كبريائي. فلئن كنت قد تخاذلت أمام فتاة، فما أنا بمتخاذل أمام رجل يبرق ويرعد، ويتهدد ويتوعد. وقدمت إلى كليرمونت نهبًا مقسمًا للاضطراب. على أن فترة الاضطراب لم تطل، إذ علمت بانتحار الآنسة شارلوت. ولم ألبث أن قبض عليّ، وقدمت إلى قاضي التحقيق فتبينت ملابسات ذاك الانتحار: فلقد تناولت شارلوت قسطًا من السم الذي ابتعته، يكفي للقضاء عليها. وأقدمت على فعلتها في ذات اليوم الذي طالعت فيه مذكراتي اليومية. على أني لم ألق لهذا الأمر بالًا. إذ كنت معنيًا بغير تلك المذكرات

العقيمة. ولقد حرصت شارلوت، كيلا تثير شكوكي، على أن تضع ماء بدل السم الذي أخذته. ثم ألقت الزجاجة من النافذة، مخافة أن يعلم أبوها أو أمها بانتحار عن غير طريق أخيها وعلى الرغم من أني كنت أعلم الحقيقة كاملة عن تلك الماساة المروعة، وأستطيع أن أقدم تلك المذكرات لتكون قرينة على براءتي فإني، ما لبثت أن خرجت من التحقيق، حتى مزقتها كل ممزق. وأبيت أن أتكلم، وأن أدافع عن نفسى، بسبب ذلك الأخ. فلقد قلت لك إني شربت كأس الذل حتى الثمالة، فلم أعد أطيق ذلًّا جديدًا. فهذا الرجل الذي فاضت نفسي بالحقد عليه، والذي تتمثل لي شارلوت في شخصه، يعلم الحقيقة كاملة، فيعدني أدنى الأدنياء. على أنه ليس من حقه أن يسرف في احتقاري. نعم، ليس من حقه، فنحن الاثنان نلزم الصمت معًا. ولكن صمتي يفضي بي إلى المقامرة برأسي إنقاذًا لشرف تلك التي قضت. وأما صمته فمعناه التضحية ببريء على هيكل ذاك الشرف. فأينا الشجاع؟ أنا الذي أبى الدفاع عن نفسه محتميًا خلف جثة شارلوت، أم هو الذي يحتفظ بالخطاب المتضمن خبر انتحارها. ليثأر من عاشق أخته بأن يدعه يقضي عليه كأنه قاتل؟ وأينا بعد هذا النبيل؟

إن رفض الدفاع عن نفسي ليمحو الخجل الناشئ عن ضعفي ليلة أسلمت شارلوت نفسها إليَّ، وأني لأشعر بالكبرياء يملأ جوانحي حين أراني أحتمل كل تلك الآلام، دون أن أقتل نفسي، لأضع حدًّا لها. وما أرى الكونت أندريه إلا ماضيًا في طريق العار إلى النهاية. فإذا

قضي عليّ، وهو يعلم براءتي ويحمل دليلها بيده، ثم يلتزم الصمت، فلن يكون لدى أسرة جوسات راندون ما تأخذني به.

ولكن أفضيت إليك بكل شيء، يا أستاذى الجليل. وكشفت لك عن دخيلة نفسي. وما أنا بحاجة لأن أذكر العهد الذي أخذته عليك، إذ استودعتك هذا السر. فما أنت ممن ينكث العهد. على أنك ترى أن هذا الصمت يضيق أنفاسي، أجل، لقد ضقت ذرعًا بهذا الكابوس الجاثم فوق صدري ضقت ذرعًا بتأنيب الضمير. وأصبحت بحاجة إلى صوت يرثي لحالي، ويبدد الأشباح التي تتراءى لي.

ولقد فكرت في الأسئلة التي كنت أود أن أوجهها إليك. وظننت أني سأبسط لك تاريخي كما بسطت نظرياتك في مؤلفاتك التي طالما أقبلت على مطالعتها، فلم أجد ما أقول لك غير كلمة اليأس: "من الأعماق!" فاكتب إلى يا أستاذي العزيز، وخذ بيدي وسط ذاك الظلام المتحجر. وثبت عقيدتي، بان أبغض الأعمال وأقبحها، حتى اعتزامي في دم بارد وضمير جامد أن أخدع شارلوت عن عفافها، وحتى تخاذلي بعد أن تواصينا بالموت معًا، ليست إلا جزءًا من نواميس هذا الكون العظيم. قل إني لست مسخًا دميمًا، وأنك سوف ترتضيني، إذا اجتزت تلك المحنة، تلميذًا وصديقًا. فلو كنت طبيبًا، وجاءك مريض يكشف لك عن جرحه، لدفعتك الإنسانية إلى تضميده. ولأنت طبيب نفوس عظيم. وبنفسي جروح عميقة دامية. فهلا قلت كلمة تروح عنها، ولا زلت موضع الإجلال والإكبار من الوفي المخلص.

"روبير جرسلو"

الاضطراب الفكري

مضى شهر كامل، مذ حملت والدة روبير جرسلو، تلك الوثيقة الغريبة إلى أدريان سكست، فتردد في قراءتها. وما أن قرأها حتى بات الفيلسوف أربعة أسابيع طوال، صريح الاضطراب. وما استطاع أن يخفي اضطرابه عن أعين الناس. فمشوا بعضهم إلى بعض يتساءلون عما دهى الفيلسوف فغير أطواره، وبدل أحواله، وراحت الآنسة "ترابينارد" تتحدث إلى جماعة "كربونيه". لقد لبث أدريان سكست، طوال خمسة عشر عامًا مثال الدقة والضبط في ذهابه وإيابه، وغدوه ورواحه، كأنما هو "كرونومتر حي" وسط حي حديقة النباتات الهادئ الساكن. ثم أصبح أليف اضطراب وقلق، دون سبب ظاهر. فمذ زارته مدام جرسلو، وهو كريشة في مهب الريح، لا يستقر على حال. فإذا خرج للرياضة، نازعته نفسه إلى العودة. وإذا عاد لا يلبث أن يتبرم بغرفته. وإذا سار في الطريق، لم يسر بخطى منتظمة، فتارة يستحث السير، وطورًا يقف، وأخرى يلوح بيديه، كأنما هو في حرب مع نفسه. وتجلت مظاهر أخرى لاضطرابه. فقد روت الآنسة "ترابينارد" إلى حارس الباب وامرأته، أنه لم يعد يأوي إلى فراشه، قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا.

ـ وقالت الفتاة: "وليس العمل مبعث اضطرابه. فإنه يمشي.. ثم يمشي.. ولقد اعتقدت لأول وهلة أنه مريض. فنهضت كي أسائله عما إذا كان يبغي دواءً.. فما راعني إلا أن رأيته يردني بجفاء وغلظة، وهو الذي عهدته جم الأدب، وديع النفس، طويل مدى الأناة".

ـ فأجابت امرأة الحارس: "أما أنا فقد رأيته جالسًا في قهوة! فما صدقت عيني.. وكان يقرأ صحيفة.. ولو لم أعرفه، لولَّيت منه فرارًا ولملئت منه رعبًا.. ولو رأيت ثم رأيت وجهًا مكفهرًّا، وجبينًا مقطبًا، وفمًا ملتويًا".

ـ فصاحت الآنسة "ترابينارد": "القهوة؟ لقد مضى عليّ في خدمته، زهاء ستة عشرعامًا، لم أره في خلالها يفتح صحيفة".

ـ وقال الحارس: "إن الرجل حزين.. ويرجع تاريخ حزنه إلى يوم أن استدعاه قاضي التحقيق، وزارته السيدة المتشحة بالسواد.. وأكبر ظني أن له غلامًا يثير متاعبه".

ـ فصاحت الآنسة ترابينارد في دهشة وذهول: "سبحانك ربي! كيف يكون له غلام؟"

ـ فمضى الحارس يقول: "ولماذا لا يكون له غلام، وللصبا عنفوانه وللشباب فورته وجنونه؟"

ـ وهال الآنسة "ترابينارد" ما سمعت من فم الحارس، فراح يملأ

سمعها بالاشاعات التي استفاضت عن أدريان سكست مذ تغيرت أطواره، وتبدلت أحواله، فلقد تضافرت ألسنة السوء على القول بأن استدعاء قاضي التحقيق للفيلسوف هو منشأ اضطرابه. وقال نسوة في المدينة إن ثروة المسيو سكست قامت على وديعة في ذمة أبيه لم يحسن القيام عليها، فأصبح حقًّا على الابن أن يرد الأمانة إلى أهلها. وكان القصاب يقول لمن يريد أن يستمع إليه: إن هذا العالم متزوج، فأقبلت امرأته تثير في وجهه حربًا عوانًا، وأقامت عليه دعوى أمام القضاء. وقال بائع الفحم، إن لهذا الرجل الشريف أخًا قاتلًا. وكان القاتل الذي يلمح إليه قد ارتكب جريمة مروعة أثارت ثائرة الرأي العام.

فاستنكرت الآنسة "ترابينارد" تلك الإشاعات التي يروجونها، والأراجيف التي يذيعونها، فأقسمت أن تصم أذنيها عن سماع الإشاعات، وتعرض عن المرجفين.

وحقًّا أنها كانت تشعر بمحبته، وتجل فيه الإنسان المهذب، والرجل المثقف، الذي طالما تحدثت عنه الصحف. وتكبر منه أن يدعها ربة البيت فلا يناقشها الحساب. وكان من دواعي اغتباطها، أن ترعاه وتسهر على راحته، وهي القوية المتينة، وهو الضعيف المهزول، وأن تظلل بحمايتها رجلًا غرًّا ساذجًا، في وسع غلام أن يتغفله.. فما من عجب أن تعرض عما يرجفون به، وأن تستشعر الوحشة بعد تبدل

أحوال سيدها. وما آلمها إلا أن تراه لا يكاد يذوق الطعام، ولا ينام إلا غرارًا. ورأت سحابة الحزن ترتسم على وجهه، فما استطاعت أن تسري عنه، أو تتبين منشأ الحزن، ومبعث الاضطراب. وجاءها "سكست" بعد ظهر يوم في شهر مارس حوالي الساعة الخامسة، وقد تناول الغذاء في الخارج، وأقبل يقول لها:

ـ "هل الحقيبة مهيأة يا مربيت؟"

ـ فأجابت الخادمة: "لست أدري يا سيدي. فما أذكر أن سيدي استخدمها مذ أقبلت على خدمته".

ـ قال الفيلسوف: "اذهبي فابحثي عنها".

فأطاعت الفتاة. وما لبثت أن حملت حقيبة كساها الغبار، وعلا الصدأ أقفالها، وفقدت مفاتيحها.

ـ فقال مسيو سكست: "حسن جدًا، ما عليك إلا أن تشتري حقيبة مثلها، وأن تضعي فيها كل ما يتطلبه السفر".

ـ فتساءلت الآنسة ترابينارد: "أمسافر أنت يا سيدي؟"

ـ فقال الفيلسوف: "نعم، بضعة أيام".

ـ فقالت الخادمة: "ولكن سيدي يعوزه كل شيء يتطلبه السفر. ولا يستطيع سيدي أن يذهب على تلك الصورة، بغير غطاء للسفر، بغير...".

ـ فقاطعها الفيلسوف: "هيا هيئي كل ما يتطلبه السفر. فسأستقل قطار الساعة التاسعة".

ـ "وهلا يرى سيدي أن أصحبه؟"

ـ فقال سكست: "كلا، لا جدوى في ذلك. هيا، فليس في الوقت متسع".

ـ فلما روت الآنسة "ترابينارد" هذا الحادث الجديد للحارس، وهو حادث لا يقل غرابة عما قيل من إعلان زواجه، قال: "إن أخوف ما أخاف أن تكون خطرت له فكرة القضاء على نفسه".

ـ فقالت الخادمة: "آه! لو ارتضى أن أصحبه! لقد كنت أتحمل نفقات السفر راضية".

ودلت لهجة الآنسة ترابينارد عن مبلغ ما ساورها من القلق على سيدها. وفي الواقع، فان الفيلسوف، لم يكد يقرأ مذكرة روبير جرسلو، حتى أخذ منه الاضطراب كل مأخذ. وكان فزعًا مرتاعًا حين أمر خادمته أن تهيئ له الحقيبة، كما كان جزعًا مروعًا حين طالع تلك الصفحات. فالحق أنها تكشفت عن روح إجرامية، ونفس تتنازعها عوامل الكبرياء والخجل، وتضطرب في جوانبها دواعي القحة والعار.

وما أن طالع الفيلسوف عبارة روبير جرسلو التي يصارح فيها بأنه يرتبط معه برباط وثيق، حتى بلغ منه الاضطراب كل مبلغ. كذلك كان

يجزع كلما رأى اسمه يذكر في سياق تلك المذكرة، ورأى ذاك الشاب المتشبع بروح الإجرام، يسوق الاستشهاد تلو الاستشهاد، من مؤلفاته، مما يؤكد أنه تلميذه حقًّا. ولقد ساقه حب الاستطلاع إلى مطالعة ذاك التاريخ إلى النهاية، فهاله أن يرى علمه وآراءه متصلة بتلك الأعمال الشائنة.

ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد! فقد زعم متهم مدينة "ريوم" أن ذلك العلم، وتلك الآراء، تعتبر مبررًا، وتعد سببًا، لأبشع فعلة أملاها الفساد الخلقي! وكلما أوغل سكست في المطالعة، كان يشعر بأن شخصيته قد تلوثت، وتعفنت، بل تسممت، رغم أن المشاعر التي تكشف عنها تلك المذكرة، هي أبغض المشاعر إلى نفسه. فقد كان ذاك الفيلسوف العظيم عف الضمير. وكان إلى عقليته الهدامة، يحمل في صدره قلبًا رحيمًا وينطوي على أشرف العواطف، وأنبل النزعات. فهذا الضمير الحي الذي لا تشوبه شائبة، وذاك الشرف الرفيع الذي لا ترقى إليه شبهة. أو يرتفع إليه شك، أو يتعلق به غبار، هما اللذان تأذيا من الإثم الذي اقترفه ذاك المدرس الأثيم.

وراع الفيلسوف أن يرى شابًّا يمزق عرض فتاة على تلك الصورة الدنيئة، ويرتكب أبشع الجنايات وأشنعها، ثم تتوج المأساة الفاجعة بانتحار يمزق نياط القلوب، فراح يقلب النظر في فتك نظرياته بالعقول الفجعة، وإفساد آرائه للنفوس الغضة، وهو هو الذي عاش طوال حياته، طاهر الذيل، عف الضمير والنظر.

وهاله أن يرى مغامرة "روبير جرسلو" تتكشف عن اشتراك مؤلفاته في الفعال القبيحة التي يمليها كبرياء بشع، وتوحي بها أهواء جامحة، وهو هو الذي وقف جهوده على البحوث النفسية، وجعل نصب عينيه خدمة علم النفس كعامل متواضع، يلقي البذرة الصالحة لتأتي بخير الثمرات، ويعرض على نفسه أقسى ضروب الزهد، وأشد ألوان التقشف، حتى لا يجد خصوم مذهبه سبيلًا إلى التشكيك فيه، من طريق التهجم على شخصه. ولو أن طبيبًا اكتشف علاجًا فبادر أحد مساعديه إلى تطبيقه، فبات فريق من المرضى في النزع، لشعر الطبيب بالحزن والألم. وكذلك كان شأن أدريان سكست. ولو أن رجلًا ارتكب الشر، وهو يعلم ذلك ويريده، لفاضت نفسه ألمًا ومرارة لو كان يؤثر ضميره على فعاله. فما بالك برجل كرس ثلاثين عامًا من أعوام حياته للقيام بعمل، وكان يعتقد بجدوى ذاك العمل، فوقف جهوده عليه، وأخذ يصد هجمات خصومه، ويدفع اتهاماتهم الباطلة بمنافاته للأخلاق، فإذا به يشهد على ضوء مأساة مروعة، ويرى بعينه، ويلمس بيده، الدليل على أن ذاك العمل قد سمم نفسًا، وإنه ينطوي على مبدأ الموت، ويبث ذاك المبدأ في جوانب العالم. لا شك أن الصدمة العنيفة التي يتلقاها، لا يهون احتمالها، والجرح الذي يدمي قلبه لا يلتئم بحال.

ولقد مرت فترة الألم هذه بجميع المفكرين الذين ينزعون إلى الثورة. على أن غالبيتهم يجتازونها بسرعة، فقد يندر أن ترى رجلًا

يزج بنفسه في غمار الأفكار، ثم لا تفتر حرارة إخلاصه، فيصبح ممثلًا أكثر منه عاملًا مخلصًا. على أنه يظل يلعب الدور الذي بدأه. ويلتف الأنصار حول رايته، وينضوي خياله، ويتضاءل مثله الأعلى. ويعلل النفس، بأن الحياة مزيج من الخير والشر، والحق والباطل، والحقيقة والخيال، وأن العالم هو العالم، والناس هم الناس، في كل زمان ومكان.

على أن إخلاص أدريان سكست لم يكن من ذاك الطراز الذي يبيح الترخص في الضمير، والتفريط في المثل العليا. فلم يكن لديه دور ليقوم بتمثيله، ولا كان له أنصار يترضاهم، أو أشياع يتملق شعورهم. وإنما كان يعيش بنفسه، ولفكرته. ويفنى، في فلسفته، لا في شخصية غيره. وإذا كان الاسم الذي يملأ الأفواه والأسماع، والشهرة المستفيضة التي تطبق الخافقين، كل هذا يحمل على المجاملة والمصانعة، فقد ظل أدريان سكست، رغم اسمه الداوي، وشهرته الخفاقة، جافًّا لا يعرف المصانعة، عزيز النفس لا يدري المجاملة والمداجاة. وكان يعيش بين ظهراني المجتمع وكأنه ليس من أبنائه.

فأما العواطف التي رسم صورها. والجرائم التي توفَّر على دراستها، فقد كانت تبدو له، كتلك الشخصيات التي تشير إليها المشاهدات الطبية: "فلان... عمره ٣٥ سنة... صناعته كذا...، أعزب... " ثم يسهب الطبيب، في بيان الحالة، دون التعرض لشخصية

المريض. وقصارى القول أن ذاك الذي أشبع الكلام عن العواطف، وأفاض في تحليل الارادة، لم يواجه انسانا من لحم ودم. حتى إن مذكرة روبير جرسلو لم تجرح ضميره فحسب، وإنما أدمت خياله، وضميره معًا.

أجل، لقد آذت تلك المذكرة خيال الفيلسوف، كما يؤذي ضوء الشمس عين الأرمد. ولبث طوال الثمانية أيام التي تلت قراءتها، يشعر بألم مضاعف، معنوي ومادي. وشعر هذا الذي لم يضرب إلا في بيداء النظريات المجردة، بثقل الكابوس الجاثم فوق صدره. وتمثلت له صورة تلميذه البغيض، كيوم أن رآه في غرفته، يمشي على أرضها، ويعتمد على منضدتها، ويروح ويغدو في جوانبها. وانبعث من ثنايا السطور صوت يهيب به، فيملأ سمعه بتلك العبارة الرهيبة: "لقد عشت بفكرتك، ولها، بكل ما فيَّ من جهد وعاطفة".

وما كانت كلمات الاعتراف حروفًا مسطورة بمداد بارد، فوق ورق جامد، وإنما بات يكمن في ثناياها، كائن ينبض بالحياة. فلما تراءت له بتلك الكراسة. ولقد كان من الطبيعي، وقد باتت الأم فريسة لشر أنواع القلق، وأسوأ ألوان الاضطراب، متهالكة على تثبت براءة ولدها، أن تنتهك حرمة الوديعة! لكن لا، فقد خدعها روبير، متوسلًا بذاك الرياء الذي طالما فاخر ذاك الشقي به، كما يفاخر بانتصار في ميدان علم النفس.

ولقد كان يكفي أن يتمثل أدريان سكست وجه ذلك الشاب حتى يملأ الاضطراب جوانحه. ولما صاحت الأم في وجهه: "لقد أفسدت ولدي". لم تمسسه تلك الصيحة كعالم يدين بعلمه، ويؤمن بنظرياته، ولا يرى أن العلم يفسد النفوس، والنظريات البريئة تدفع إلى الإجرام. لم يأبه لصيحة الأم، ولم يحفل بالاتهامات التي أزجاها المسيو دي جوسات، ورددها قاضي التحقيق. لا بل لم يهتز لعبارة القاضي عن المسؤولية الأدبية. ولقد غادر دار العدالة، أهدأ ما يكون نفسًا، وأروح ما يكون ضميرًا! بل ليس من الغلو في شيء أن يقال إنه برح غرفة التحقيق فرحًا.

فأما الآن فقد خانه جلده. وفارقه سكونه. وبات، وهو الفيلسوف الذي ينكر كل حرية، ويدين بالجبرية، ويؤمن بالقضاء والقدر، فيحلل الفضيلة والرذيلة، غير متورع ولا متأثم، كما يقبل الكيميائي على دراسة غاز من الغازات، وهو النبي الذي يبشر بسير الكون سيرًا ميكانيكيًا، والذي عرف الانسجام بين قلبه وعقله، يشعر بألم يتناقص تناقضًا صارخًا مع كافة مذاهبه العلمية، ونظرياته النفسية: ـ لقد بات مثل تلميذه، يحس بوخز الضمير، ويشعر بالمسؤولية.

قرأ الفيلسوف المذكرة، وأعاد قراءتها، فتجلى له الخلاف بين قلبه وعقله. وكان يتريض في حديقة النباتات، فأَوى إلى جذع شجرة كان يؤثر أن يتفيَّأ ظلالها إذ كتب عليها... "غرست في عام ١٦٣٢".

وهو العام الذي ولد فيه "سبينوزا". وكان للطقس أثره المحمود في تهدئة أعصاب أدريان سكست. وأصبح يحلو له أن يرقب طفلين يلعبان عن كثب من أمهما. ولبث الطفلان يجمعان الرمال ليشيدا منها بيتًا وهميًّا. ونهض أحد الطفلين فاصطدم بمقعد خشبي. وكانت الصدمة أليمة، على أنه لم ينفجر بالبكاء إلا بعد بضع ثوان، والأطفال تخنقهم العبرات، قبل أن يبكوا وينتحبوا. ثم هاج وماج، وانفجرت براكين غضبه، فأخذ يضرب المقعد بقبضة يده.

فقالت له أمه، وهي تدلله، وتكفكف غرب دموعه: "ما الذي دهاك يا ولدي؛ وكيف تثور ثائرتك ضد قطعة من الخشب؟"

فلما رأى الفيلسوف هذا سرِّي عنه. وفكر فيه طويلًا فقال لنفسه: "ما أشبهني بهذا الغلام الصغير. إن سذاجة الطفولة تصور له الجامد حيًّا، فيجعله مسؤولا، ويحمله التبعة.. وهل صنعت أنا غير ذلك طوال أسبوع؟" ولأول مرة منذ قرأ المذكرة اجترأ على أن يصوغ فكرته بوضوح: "لقد اعتقدت أني أحمل قسطًا من المسؤولية في تلك المغامرة الشنيعة.. مسؤولية؟ إن تلك الكلمة لا طائل تحتها، ولا معنى لها".

ولبث يحلل عناصر المسؤولية. ورأى نفسه مسوقًا إلى التفكير في جرسلو السجين اليوم في السجن الانفرادي رقم ٥ في مدينة "ريوم" وجرسلو الطالب بالأمس بمدينة كليرمونت والمكب على دراسة

"نظرية العواطف" و"روح الله"، فآلمه أن يكون ذاك الفتى قد تناول مؤلفاته، فأنعم النظر فيها، فأحبها. وثارت في خاطره العبارة الواردة في مذكرة جرسلو، والتي يقول فيها: "إني لأشعر بتأنيب الضمير، على حين أن المذاهب التي أدين بها، والحقائق التي أؤمن بصحتها، والعقائد التي يتألف منها جوهر عقلي، تجعلني أعتبر الضمير أغبى الأوهام الإنسانية جميعًا".

وقال الفيلسوف في نفسه: "لكن ماذا صنعت من سوء؟ وفيم يؤنبني ضميري؟ وكيف أحتمل تبعة المأساة الفاجعة التي أثارها ذلك الشرير الفاجر؟ وأين الخطأ الذي ارتكبته؟" واستعرض تاريخ حياته فوجد أنه اتخذ الحقيقة دينًا. فلم يكتب إلا ليناصرها، ولم يخط حرفًا إلا في سبيل تأييد قضيتها. وفي سبيل الحقيقة ضحى بكل شيء: بالثورة، والمنصب، والأسرة، والصحة، والحب، والصداقة. ولم يحد يومًا عن شعاره: "أفض بكل فكرتك، ولا تفض إلا بفكرتك". وفى تلك الليلة نام الفيلسوف ملء جفونه، ولم تزعجه في نومه رؤيا روبير جرسلو.

وفي الغد، نهض أدريان سكست من نومه هادئ البال. ثم أخذت تتنازعه الخواطر. فرأى في عنقه دينًا لا بد أن يؤديه لروبير جرسلو. وحقًّا إن الأستاذ مسؤول عن تلميذه، وإن أساء التلميذ فهم مبادئه وتعاليمه. وهنا اضطربت نفس الفيلسوف، للمرة الثانية. ولكم هم

بأن يكتب لروبير جرسلو. على أنه كان لا يدري كيف ينجز ما بدأ. فماذا يقول لذاك الشاب التعس؟ أيلومه؟ وباسم أي مبدأ يلومه، وهو القائل، بأن الفضيلة والرذيلة ليست إلا مسائل اعتبارية، والخير والشر اصطلاحات اجتماعية لا طائل تحتها، ولا غناء فيها؟ أي نصيحة يبذلها له في المستقبل؟ وكيف السبيل إلى إصلاح فتى لم يجاوز الثانية والعشرين، وقد نفخ الغرور رأسه، وأفسدته الشهوات الجامحة، والفضول المعيب، والنزوع إلى مخالفة الإجماع، والتنكر لكل ما اصطلح الناس على أنه شرف، وتواضعوا على أنه فضيلة. وهل من سبيل إلى إقناع الأفعى بألا تنفث سمومها؟

وظل الفيلسوف في حرب نفسية حتى حدث ما زاد الحرب ضرامًا. فقد أرسل إليه مجهول صحيفة تحمل مقالًا عنيفًا، أثار حملة شعواء عليه، وعلى تأثيره السيئ، بمناسبة روبير جرسلو. وما من شك في أن الوحي قد هبط على كاتب المقال، من أحد ذوي القربى، أو المتصلين بأسرة جوسات، فوصم الفلسفة العصرية ومذاهبها، ودمغ دعاتها، والهاتفين بآرائها، وعلى رأسهم أدريان سكست، ومن لف لفه من العلماء. ثم ضرب مثلًا، فأشار إلى قاتل الآنسة شارلوت وهو يمشي نحو أداة الأعدام، فيبرئ الشبان من أدواء الفلسفة الحديثة. ولو كان العالم العظيم، في موقف غير هذا الموقف، لابتسم إشفاقًا لهذا الكلام الأجوف. ولظن أن خصمه ديمولان، هو الذي بعث إليه بالصحيفة، ولأقبل على عمله هادئًا، هدوء "أرخميدس"، حين كان

يخط رسومه الهندسية، على الرمل، والمدينة فريسة لنهب والسلب. ولكن راعه أن يرى تلك المأساة الخلقية تتمشى جنبًا إلى جنب مع مأساة حقيقية. وما هي إلا بضعة أسابيع، أو بضعة أيام، حتى يساق إلى المحاكمة، ويقف الاتهام، ذاك الذي يحمل بيده دليل براءته.

والآن، فإن خادع الآنسة شارلوت بريء في عرف العدالة الإنسانية. ولئن لم تكن تلك المذكرة شهادة قاطعة، فإن جانب الصدق فيها يكفي لإنقاذ رأس المتهم. أفيدع ذلك الرأس يطيح، وهو الذي استودعه ذلك الشاب، سر بؤسه، وفعاله الشائنة، وخياناته السوداء، على أنه يعلم، إلى جانب ذلك، أن هذا الشرير الفاجر ليس قاتلًا؟ حقًّا لقد كان مقيدًا بالعهد الذي قطعه على نفسه حين فض غلاف تلك المذكرة، وطفق يطالعها. لكن هل العهد مشروع حيال الموت؟ وكذلك لبث أدريان سكست بين الإقدام والإحجام ثم اتخذ خطة.

فلقد طالع في الصحف أن قضية جرسلو ستطرح أمام محكمة جنايات "ريوم" في يوم الجمعة ١١ مارس. وفي اليوم السابق أمر مربيت أن تهيئ له حقيبته. وفي المساء، استقل القطار، بعد أن ألقى في صندوق البريد كتابًا موجهًا إلى الكونت أندريه دي جوسات الضابط بفرقة الخيالة بحامية "لونيفيل"، وكان الخطاب غفلًا من الأمضاء، ولا يتضمن إلا هذه الأسطر "إن بيد الكونت دي جوسات، خطابًا من

أخته، يحمل الدليل على براءة "روبير جرسلو". أفيسمح بأن يقضي على بريء؟" ولم يستطع ذاك الفيلسوف الهدام أن يكتب الدعوى، ثم يتكلم. فإذا التزم المسيو دي جوسات الصمت إلى النهاية، وإذا قضي على جرسلو، فسيضع المذكرة بين يدي الرئيس في الحال.

ـ وقالت الآنسة ترابينارد للحارس "كاربونيه" بعد أن رجعت من المحطة حيث صحبت سيدها على الرغم منه: "لقد أخذ تذكرته إلى "ريوم" فكيف خطر له أن يذهب إلى هناك وحده، في هذا الشتاء، وهو الذي قد توافرت له أسباب الراحة هنا؟"

فأجاب الحارس: "هدئي روعك يا آنسة مرييت. ففي الأمر سر سوف تكشفه الأيام.. وأغلب الظن عندي، أن في طيات المسألة ولدًا غير شرعي".

الكونت أندريه

كان الكونت أندريه في مدينة "ريوم"، في اللحظة التي وصل فيها خطاب أدريان سكست إلى "لونيفيل"، يحمل الدعوة إلى ذاك الذي بات مصير روبير جرسلو معلقًا بيده. وشاءت الأقدار ألا يلتقي الرجلان، فقد أخذ كل منهما طريقًا غير طرق صاحبه، ونزل في فندق غير فندقه.

وفي صباح يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٨٨٧ فتحت جلسة الجنايات، وأخذت المحكمة تنظر في قضية روبير جرسلو، وكان الكونت أندريه، أخ شارلوت، يروح في بهو الفندق ويغدو، وأوشك النهار أن ينتصف. واستطاع ياور الكونت أن يهيئ النظام في البهو. ولبث يرقب ضابطه وهو يقطع المسافة جيئة وذهوبًا، فيفتل شاربه بيد عصبية، ويعض شفته، ويقطب جبينه، ويعقد ما بين عينيه، بما لا يدع مجالًا للشك في أنه صريع الاضطراب والقلق.

ولاح للجندي أن الكونت لم يستطع أن يضبط شعوره أثناء محاكمة قاتل أخته. وما كان هو أو غيره ممن اتصلوا بأسرة جوسات راندون وعرفوا شارلوت، ليشكوا في إدانة روبير جرسلو. على أن الذي لم يتبينه الجندي الأمين، هو أن ضابطه، بما عهد فيه من همة،

وعرف عنه من نشاط يدع المركيز، وهو شيخ كبير، يشهد الجلسة وحده. وقال الكونت لياوره وهو يهيئ المائدة للطعام: "إن ذلك ليؤلمني جد الألم". وإذ رأى الجندى مظاهر الغم مرتسمة على وجه سيده قال لنفسه: "إنه لطيب القلب رغم ما به من خشونة وغلظة.. كم كان يحبها!"

وما كان أندريه دي جوسات يشعر بوجود أحد معه في الغرفة. وما كانت عيناه السوداوان اللتان طالما قذفتا الروع في قلب روبير جرسلو، ترسلان النظرة التي تفيض عزة وكبرياء شأنهما عادة. بل كان ينبعث منهما ما يشبه الخجل، والخوف من إبداء ما يساور النفس من ألم. ويرجع تاريخ ألمه هذا إلى اليوم الذي تلقى فيه كتاب أخته المؤذن بعزمها على الانتحار. فبرقية معلنة موت شارلوت. فاستقل القطار إلى "أوفرني" على عجل، وهو لا يدري على أي صورة يكاشف أباه بالحقيقة الرهيبة، وإنما عقد العزم على أن يثأر من جرسلو. وتلقاه المركيز بهذه الكلمات:

ـ "أتسلمت برقيتي الثانية؟ لقد وضعنا يدنا على القاتل".

فلم يقل الكونت شيئًا، علمًا بأن سوء التفاهم قائم بين أبيه وبينه. وطفق المركيز يروي الشبهات الملقاة على المدرس، ويقول: "سيلقى القبض عليه كقاتل". فتسلطت الفكرة التالية على ذهن الأخ الذي طار صوابه من هول الصدمة: إن القدر يحمله ثقل الثأر. وقد بات الثأر

نصب عينه، ومناط تفكيره، مذ قرأ والأسى يملأ فؤاده اعتراف التي قضت، وبيان بؤسها، وضلالها، ومقاومتها، وكيف هبت من نومها مذعورة، وكيف اعتزمت أن تجهز على نفسها. وما كان عليه إلا أن يُخفي هذا الخطاب الذي يحمله في محفظته، حتى يتهم ذاك الجبان الذي عبث بشرف الفتاة، فيقضى عليه دون شك، وبذلك تنقذ سمعة شارلوت، ويسلم شرفها من الأذى، إذ كان روبير جرسلو لا يستطيع أن يبين حقيقة علاقته بالفتاة، ويوفر على أبويها اللذين وضعا ثقتهما في ابنتهما، وانطويا على أصدق الحب لذكراها، أن يعلما بالخطأ الذي تورطت فيه، فلا يحتملان الصدمتين معًا: صدمة موتها، وصدمة سلب عفافها.. وكذلك لزم الكونت أندريه جانب الصمت.

ولزم الصمت وهو مع نفسه في حرب مشبوبة الضرام. فهذا الرجل الباسل، الذي كان ينطوي بطبعه وإرادته، على أصدق الفضائل التي يتميز بها أصدق جندي، كان يمقت الخيانة، والترخص في الضمير، وجميع ألوان المواربة، وكافة ضروب الجبن. فشعر بأن من واجبه أن يتكلم، وألا يدع بريئًا يؤخذ بجهالة. وما كان يغني عنه شيئًا أن يقول لنفسه، إن جرسلو هو القاتل الأدبي لشارلوت، وإنه خليق بالعقاب كغيره من القاتلين. فإنما كانت تلك سفسطة أملاها الحنق المضطرم، وأوحى بها الحقد المتأجج، فلم تقو على أن تخمد الصوت المنبعث من أعماق الضمير، والذي يهيب بنا ألا نكون أعوان الظلم، وشركاء فى البغي، والقضاء على جرسلو باعتباره مرتكبًا جريمة القتل بالسم ظلم لا شك فيه.

وجد ظرف غير مرتقب هال أندريه دي جوسات وضاعف من حيرته واضطرابه: ذلك هو صمت المتهم. فلو أن جرسلو تكلم، فملأ الأسماع بتاريخ حبه وغرامه، مدافعًا عن رأسه، على حساب شرف الضحية، لما كان الكونت مسرفًا في احتقاره. على أن هذا المجرم الذي يسطو على الأعراض، ما لبث أن تبدى في كرم النبيل، فلم ينطق بكلمة تلوث ذكرى تلك التي ساقها إلى أعماق الهاوية. وظهر ذاك الوغد في مظهر الشجاعة أمام العدالة، وتبدى في ثياب البطولة على طريقته الخاصة. وفي كل حال، لم يعد غير جدير إلا بالتقزز من لؤمه، غير حقيق إلا بالاشمزاز من نذالته.

وقال أندريه لنفسه، ما تلك إلا حيلة يعمد المتهم إليها، ووسيلة يتذرع بها أمام محكمة الجنايات لينال البراءة، إذ كانت القضية خلوًّا من الأدلة. ولكنه كان يعلم من كتاب أخته، بوجود مذكرات يومية، تتضمن تاريخ الإغراء، ساعة فساعة، ومرحلة بعد أخرى. وما من شك في أن تلك المذكرات تزعزع أركان الاتهام، وتضعف الرجاء في القضاء على المتهم، ورغم ذلك فإن جرسلو أبى أن يبرزها.

وما استطاع الضابط أن يعلل مثار غضبه، من هذا السلوك الشريف الذي سلك خصمه، حتى لقد رأى نفسه مسوقًا برغبة ملحة لأن يسارع إلى القاضي المنوط به تحقيق الدعوى، فتتجلى الحقيقة، ويلقي الضوء على المأساة، ولا تكون تلك التي قضت مدينة بشرفها

لذاك الداعر الفاجر الذي سطا على عرضها، فسلبها أثمن جوهرة في تاج شرفها. وكلما تمثل أخته، تلك الإنسانة التي كان يحبها من كل قلبه، كما يحب الأخ الكبير أخته الصغيرة، حبًّا صادقًا عميقًا ـ كلما تمثلها ضجيعة ذلك الوغد الزنيم، والمدرس الحقير، الذي ساقته المصادفات المحضة، والحاجة إلى كسب القوت، تجسمت أمامه الإهانة البالغة التي أعياه اليوم احتمالها، كما أعياه، إبان الحرب، أن يشهد تسليم "متز" ويلقي سلاحه.

وشعر بتفريج كربته، حين ذكر أن قفص الاتهام، لا بل قفص الخزي والعار، الذي أعد لطائفة المزورين، وجماعة النصابين، وفريق السفاحين السفاكين، قد تهيأ لذاك الرجل، ثم تتلقاه آلة الإعدام، أو يلقى به في غيابة السجن.. وكان يخمد الصوت الذي يهيب به: "يجب عليك أن تتكلم". يا سبحان الله! لقد مضت ثلاثة أشهر طوال، وهو يقاسي شر ألوان القلق، ويعاني أقسى ضروب الألم. وما مضت خلال هذا الزمن لحظة لم تتنازعه فيها تلك العواطف المتضاربة!

"ماذا أصنع؟" لقد كان يبدو له هذا السؤال أينما حل وارتحل. كان يبدو له وهو في ميدان المناورات ـ فقد عاد إلى الخدمة ـ وهو ممتط صهوة جواده فينهب الأرض نهبًا في طرق اللورين، وفي حجرته وهو يعمل في ضوء المصباح. ومضت بضعة أسابيع وهو لا يجيب على هذا السؤال. ولكن أقبلت اللحظة التي ينبغي له أن يعمل فيها، ويضع

خطة حاسمة. فما هما إلا يومان حتى يحاكم جرسلو، فيحكم عليه لا محالة. وما من شك في أنه سيكون في الوقت متسع بعد القضاء عليه. على أن الحرب النفسية ستشتعل نارها من جديد. وكيف تمضي أشهر ثلاثة ولا يقطع برأي، وهو الذي لم يعرف التردد أو الشك طوال حياته؟ أفلا يشعر إذا انحدر إلى قرارة نفسه، أن الصمت الذي يعتصم به، في الوقت الحاضر، ليس إلا عزمًا مؤقتًا؟ إنه لم يرتض أن يصمت إلى النهاية. وإنما أرجأ الكلام، ولم يقف مكتوف اليدين، ولا أعطى على نفسه عهدًا ألا يتكلم. وهذا ما حال بينه وبين أن يصحب أباه في الجلسة الأولى، التي لا يلبث أن يطلع على محضرها، إذ قد وافت الساعة الثانية عشرة، ودنا موعد قدوم الشيخ الكبير.

ـ وقال الجندي حين ألقى نظرة من النافذة، إذ سمع كر عربة، تدنو من الفندق: "ها هو المركيز قد أقبل".

ـ وما أن أقبل المركيز حتى ابتدره أندريه قائلًا: "خيرًا يا أبتي؟"

فأجابه: "خير، إن المحلفين في جانبنا". ولم يعد دي جوسات ذلك المتهوس الذي سخر منه جرسلو في مذكرته وأوغل في السخر. فقد تهلل وجهه، وأبرقت أساريره، وتجلت روح الشباب في صوته وإيماءاته. وجعلته عاطفة الانتقام يتماسك بدل أن يتخاذل. وأنسته مرضه، وأصبحت عبارته قوية واضحة النبرات: "ففي صباح هذا اليوم تم سحب القرعة.. وبين الاثني عشر محلفًا.. لقد أخذت أسماءهم".

ثم يرجع إلى أوراقه، "بين الاثني عشر محلفًا، ثلاثة مزارعون، وضابطان في المعاش، وطبيب، واثنان من أصحاب الحوانيت، واثنان من الملاك، وصاحب مصنع، وأستاذ، وكلهم ممن طابت نياتهم، وخلصت سرائرهم، ومن أبناء البيوتات الذين يتطلبون مثلًا رادعًا.. والنائب العام على يقين من الحكم.. آه! يا للشقي الفاجر! ما شعرت بالراحة، لحظة واحدة، منذ ثلاثة أشهر إلا حين رأيته قادمًا بين جنديين، فأيقنت أنه مأخوذ بجنايته، وأن العدالة قد وضعت يدها عليه! ومن هو ذاك المجرم الذي يفلت من قبضة العدالة؟ لكن يا لها من جرأة! فقد نظر في جوانب القاعة.. وكنت جالسًا في الصف الأول.. فرآني.. أفتصدق؟ أنه لم يحوِّل نظره.. بل لبث يصوب النظر إليّ، كأنما هو يزدريني.. إنا نطلب رأسه، وسنناله لا محالة".

وطفق الشيخ يتحدث في لهجة وحشية، ولم يتبين آثار الألم التي ارتسمت على وجه الكونت، حين سمع حديثه. فما لبث أندريه أن تراءت له صورة خصمه، وهو صريع بين يدي القوة العامة، مكبل بالحديد، يحيط به الجند، وتوشك العدالة أن تبطش به، لا بل تسحقه تحت ثقل أداتها سحقًا ـ حتى استشعر الخجل، خجل الرجل الذي يعهد بالقتل إلى طائفة من القتلة. وفي الواقع، فقد سخر الجند والقضاة للقتل، واتخذ منهم أداة للقيام بعمل ود لو قام به هو نفسه، وبيديه، وتحت مسؤوليته! أجل، لقد كان من الجبن ألا يتكلم. ثم ماذا ينطوي من معنى تحت تلك النظرة التي ألقاها المتهم على المركيز

دي جوسات؟ هل كان جرسلو يعلم بأن شارلوت كتبت الخطاب المتضمن اعترافاتها قبل يوم انتحارها؟ ولئن كان يعلم به، فماذا يظن؟ لقد غلا الدم في عروق الكونت حين خطر له أن ذاك الشاب يمكن أن يكون واقفًا على الحقيقة، فيزدريهما، المركيز وهو، لاعتصامه بالصمت.

ـ وما أن غادر أبوه الفندق ليستأنف حضور الجلسة، بعد تناول الغذاء على عجل، وبغير أن يتبادلا كلمة واحدة، حتى قال لنفسه: "كلا، لا أستطيع أن ألزم الصمت. سأتكلم. أو سأكتب".

ثم جلس إلى المائدة، وشرع يخط هذه الكلمات في رأس ورقة: "سيدي الرئيس... ". وأقبل الليل، وما برح ذاك الرجل البائس في مكانه، وجبهته قوة يده، لم يكتب السطر الأول. وكان يترقب أنباء الجلسة الثانية، فاضطرب حين سمع من أبيه، بيان ما داربها:

ـ آه! يا عزيزي أندريه! كم كنت على حق حين أبيت أن تشهد الجلسة! يا للعار! يا للعار! لقد استجوب جرسلو... فمضى في خطته، وأبى أن يتكلم.. وهذا ليس بشيء... ولكن الخبراء أقبلوا يحملون نتيجة التحليل. وكان طبيبنا أولهم... فتكلم الرجل بصوت متهدج، حين وصف الأثر الذي تركته في نفسه رؤية بنيتنا المسكينة شارلوت لدى دخوله الغرفة.. ثم الأستاذ "أرمان". وما كنت لتحتمل هذا الشيء الفظيع، تشريح جثة ملاكنا، وهي معروضة هناك، في

القاعة، حيث يوجد خمسمائة شخص.. ثم كيميائي باريس. لم تبق إثارة من الشك بعد ذلك! ورأيت على المائدة الزجاجة التي استعملها ذاك الوحش الضاري.. ثم.. كيف اجترأوا.. إن محاميه، وهو مع ذلك محام منتدب، ولا يلتمس له العذر بأنه صديق موكل.. محاميه إذن.. لكن كيف أقول لك؟ لقد تساءل عما إذا كانت شارلوت ماتت عذراء، وعما إذا كانوا كشفوا عنها.. فسرى التقزز، وعلا التذمر، في جوانب القاعة، وتملك الغيظ من فيها جميعا.. هي، بنيتي، التي كانت ربة الصون والعفاف، ورمز الاستقامة، وعنوان الشرف، بل التي كانت قديسة! لقد هممت بأن ألطم ذاك الرجل.. حتى القاتل تأثر من ذلك، وهو الذي لا يجد التأثر سبيلًا إلى نفسه.. فلقد رأيته. وفى تلك اللحظة أخذ برأسه بين يديه، وانفجر بالبكاء.. نبئني، أفلا ينبغي أن يكون ذلك محظورًا بمقتضى القانون، فلا تنصب الإهانة على ضحية، بمرأى من الحاضرين بالجلسة ومسمع؟ فما الذي كان يعتقده إذن؟ أفكان يعتقد أن لها عاشقًا؟ عاشقًا! أو يكون لمثلها عاشق!"

وأخذ الحنق من الشيخ كل مأخذ، حتى لقد انفجر بالبكاء. وحيال ذاك الألم البالغ، شعر الابن بفؤاده يذوب أسى، والدموع تتحدر من عينيه، فتعانق الرجلان صامتين. فلما استطاع الأب أن يتكلم قال: "أنت ترى أن الجانب البشع الشنيع في تلك المحاكمة هو أن يثار الجدل علنًا حول أمور خاصة، وقد كانت تخجل مما يمس شعورها. أفلم أقل لك؟ إني على ثقة بأنها كانت تشقى طوال الشتاء

لغياب مكسيم. صدقني، لقد كانت تحبه، دون أن تود المكاشفة بذاك الحب.. وهذا الذي أضرم نيران الغيرة في قلب جرسلو.. فلما قدم إلى البيت، فرأى رقتها، وظرفها، وبساطتها، اعتقد أن في وسعه أن يغريها، فيتزوج بها. وكيف لها أن تدرك ذلك، وأنا الذي قد خبرت الرجال لم أدركه؟" ولبث المركيز يبدئ ويعيد في هذا الكلام طوال العشاء وطرفًا من الليل. وكان ذلك عزاءه الوحيد. والابن يصغي دون أن يجيب. وكان تقديس الأب لتلك التي قضت مثارًا لحزنه في اللحظة التي يتأهب فيها.. يتأهب لماذا؟ أفينزل هذه الضربة الهائلة بذاك الشيخ الكبير؟ فلما انقلب إلى غرفته، وسط السكون الشامل، تناول خطاب أخته، فأعاد قراءته، رغم أنه يحفظ كل عباراته عن ظهر قلب. فكانت تنبعث من ثنايا تلك السطور التي خطتها يد تلك التي قضت، زفرة يأس، وهمسة ألم حزين، يمزق نياط القلب! ولقد لبثت الفتاة غارقة في الوهم، وكان يحدوها الإخلاص في مناهضة شعورها، وهبت من غفلتها حزينة باكية، حتى لقد أحس الكونت الدموع تتحدر على خده. وبكى للمرة الثانية، في ذات اليوم، وهو الذي ظلت عينه جافة بعد موت شارلوت، كأنما تحترق بنار الحقد. وقال لنفسه: "لقد كان جرسلو خليقًا بما ناله". ولبث جامدًا بضع دقائق، ثم اتجه نحو الموقد، وقد كانت النيران توشك أن تخمد، فألقى بأوراق الخطاب. وأشعل عود ثقاب، ووضعه تحت الورق. فرأى النار تلتهب، فتلتهم الكتابة، فتحيل الدليل الوحيد على ذاك الحب التعس، وانتحار الفتاة،

حطامًا سوداء. ثم مزج الحطام بالتراب. وآوى إلى فراشه وهو يحدث نفسه بصوت عال: "قضي الأمر". وأسلم عينيه لِلكَرى كالليلة التي خاض في نهارها غمار أول معركة، فنام ملء جفونه، ولم يفتح عينيه، وهو المبكر عادة، إلا في الساعة التاسعة من صباح الغد.

ـ وأجاب الجندي حين ناداه سيده ففتح النوافذ وكانت الشمس مشرقة ترسل أشعتها: "لقد حظر المركيز إيقاظ رئيسي.. ومضى على ذهابه ساعة.. ويعلم رئيسي أنهم اضطروا اليوم لإحضار المتهم بطريق خفي، فلشد ما كانت ثورة الناس عليه".

ـ فسأل أندريه: "أي طريق خفي؟"

ـ "الطريق المفضي من السجن الاحتياطي إلى دار المحكمة.. ويظهر أنهم يستخدمونه لكبار المجرمين الذين يخشى أن يمزقهم الجمهور الثائر. أما والله، يا رئيس، لو رأيته يمر، لأفرغت في صدره رصاص مسدسي.. فالكلاب الكلبة، لا تحاكم، بل تصرع". ثم قال: "حسن، لقد نسيت بريد الصباح في البهو".

وما لبث أن رجع وبيده ثلاثة خطابات. فألقى أندريه نظرة على الخطابين الأولين، فأدرك لمن هما. فأما الثالث فكان يحمل عنوانًا لا يعرف كاتبه. وكان موجهًا من باريس إلى لونيفيل، ثم حوِّل إلى "ريوم". ففض الكونت غلافه وقرأ السطور الثلاثة التي خطها سكست قبل أن يستقل القطار. فارتعدت يد الضابط الباسل الذي ما

عرف الخوف سبيلًا إلى قلبه. وامتقع لونه حتى بات في لون الورقة التي يحملها بيده المرتعشة، فارتاع الجندي وسأله:

ـ "أبرئيسي مرض؟"

ـ فقال الكونت فجأة: "دعني، فسأرتدي ثيابي بنفسي".

وحقًّا أنه كان بحاجة لأن يفيق من هول الصدمة التي أصابته. إذ تبين أن في الناس من يعلم سر موت شارلوت غير روبير جرسلو ـ فلقد رأى صفحات بخط الشاب، ولم يكن هذا خطه. وكانت هزة رعب وفزع كتلك التي تصيب أشجع الرجال في حادث جلل غير مرتقب. ولو أن شارلوت بعثت من قبرها، لما هاله مرآها، كما هاله ذاك الحادث. فمن الناس من يعلم بانتحار الفتاة، وبالخطاب الذي كتبته قبل موتها، وقد يعلم غير ذلك من ملابسات المأساة.. فما عسى أن يظن به ذاك الذي يعلم الحقيقة؟ إن السؤال الذي ختمت به البطاقة يفصح عن ذلك. وما لبث الكونت أن تذكر ما اجترأ عليه ليلًا. وذكر الخطاب الذي ألقاه في النار، فاصطبغ وجهه بحمرة الخجل.. ولم يعد في وسعه أن يمضي فيما اعتزمه بالأمس. ولا يحتمل، وهو النبيل المتعطش للشرف، أن يقول قائل: "إن الكونت دي جوسات وقف موقف جبن". وانبعث من جديد اضطراب الأمس الذي حسبه مضى وانقضى، وبات أصعب احتمالًا، حين عاد أبوه فقال له:

ـ "لقد سمع الشهود.. وأديت شهادتي.. على أن ما كان شديدًا على نفسي، وجودي مع أم جرسلو قبل دخول الجلسة.. ومن سعد

الطالع أنها لم تنزل معنا في هذا الفندق.. بل نزلت في فندق آخر. اجترأت على أن تدعوني لأتحدث إليها. ويا لمنظرها حين دعتني! لقد كان وجهها مكفهرًّا، وعيونها دامعة.. وأقبلت تناشدني أن أقول إن ولدها بريء، وإني أعلم براءته، وليس من الحق أن أشهد عليه. نعم، يا له من منظر هائل، رأى الجند واجبًا عليهم وضع حد له! يا لها من تعسة! لا أستطيع لومها على ما فعلت.. فذلك ولدها.. يا عجبًا لهذا الشقي الفاجر، يجد قلبًا ينطوي على حبه، كما أحببت شارلوت وأحببتك! لكن ذلك لا يعنينا.. فقد حانت الساعة الواحدة.. وسيتكلم النائب العام.. ثم يتلوه الدفاع.. وبين الساعة الخامسة والسادسة تعلم الحكم.. وكم يروي غليلي أن أراه ساعة النطق بالحكم! فالقصاص الحق، وقد ارتكب جريمة القتل، أن يقتل".

بين الساعة الخامسة والسادسة! لما بات الكونت أندريه وحده، أخذ يغدو ويروح كما كان يفعل بالأمس ـ على حين أن الجندي ظل يرفع المائدة مع خادم المسيو دي جوسات. ولقد روى هذان الرجلان أنهما لم يريا سيدهما في مثل قلقه واضطرابه، وقت أن كانا يقومان بذاك العمل. وأثار دهشتهما حين طلب أن تهيأ له ثيابه الرسمية. وما هو إلا ربع ساعة حتى كان متأهبًا، فغادر النزل، الذي لم يبرحه منذ قدم على مدينة "ريوم". وما راع الجندي إلا أن يرى الضابط يحمل مسدسه وقد ظل يومين ملقى على مائدة غرفته. وتذكر ما قاله فأفضى إلى صاحبه بالمخاوف التي تساوره:

ـ "لو قضي ببراءة جرسلو لأفرغ الضابط رصاص مسدسه في رأسه، فألقاه صريعًا يتخبط في دمه".

ـ فأجاب الخادم: "أوليس من واجبنا أن نتبعه؟"

وبينا الخادمان يتشاوران، كان الكونت في طريقه إلى دار المحكمة. وكانت المدينة إذ ذاك في مثل صمت القبور: فلما أقبل على دار العدالة، ألفى جموعًا زاخرة غص بها الطريق المفضي إلى قاعة الجنايات. فلقد استثارت قضية جرسلو فضول الناس. وشق أندريه طريقه بين الصفوف بعناء. فلقد خف القرويون من الريف، وتجمع أصحاب الحوانيت، وكان هؤلاء وأولئك، يجادلون في حرارة. وألفى جنديين نيط بهما حفظ النظام وكبح جماح الجماهير المتدفقة. وبدا التردد على الكونت، حتى سار إلى آخر الشارع غير معرج على المحكمة فألفى نفسه أمام شرفة غرست فيها أشجار. وكان خرير الماء في السبيل يسمع رغم ضجيج الجماعات الصاخبة المتدفقة. فجلس أندريه فوق مقعد على كثب من هذا السبيل. وما يدري ما الذي حدا به لأن يمكث هناك نيفًا ونصف ساعة، ولا الباعث الذي حمله على النهوض، والتوجه صوب دار المحكمة، وتسطير بضعة كلمات في بطاقته، ودفع تلك البطاقة لأحد الجند، ليحملها الحاجب إلى الرئيس. فلقد كان مسوقًا إلى العمل رغم أنفه، وكأنما كان في حلم. وما كان ينثني عن عزمه، ولو أنه وجد نفسه وجهًا لوجه أمام أبيه، إذ

كان بين الحاضرين الذين اشرأبوا بأعناقهم، وأرهفوا أسماعهم، تطلعًا لما يدور في الجلسة. ولم يخفف عنه إلا حضور الحاجب ليرشده إلى الطريق، فلم يمر به إلى قاعة الجلسة مباشرة، وإنما أدخله في مكتب الرئيس. وكانت الملفات ملقاة على المائدة. وألفى معطفًا وقبعة معلقين في مشجب. وإذ قدم إلى هناك قال له الحاجب:

ـ "لا يلبث الرئيس أن يسمع أقوالك حين يفرغ النائب العام من مرافعته".

يا له من عزاء غير مرتقب خلال ألمه المبرح! لن يؤدي الشهادة علنًا وأمام أبيه! فسيوفر عليه هذا العذاب الأليم! على أن هذا الأمل لم يدم طويلًا. فلم يكد الضابط يمضي في مكتب الرئيس عشر دقائق، حتى دخل هذا الأخير، وكان شيخًا كبيرًا، اشتعل رأسه شيبًا. وما هي إلا الكلمات الأولى، وحيال تأكيد الكونت بأنه جاء يحمل دليل براءة المتهم، حتى قال القاضي وقد تولاه الذهول:

ـ "لا أستطيع يا سيدي، في تلك الحال، أن أستمع لما تسارني به.. وستعاد الجلسة، فتسمع كشاهد، على شريطة أن لا يعارض الاتهام أو الدفاع في سماع أقوالك".

وكذلك قدر لأخ شارلوت أن يشرب كأس الألم حتى الثمالة، ويتجرع غصص العذاب غير وانٍ، ويجتاز مراحل الهم مرحلة مرحلة. واصطدم بأداة العدالة، التي لا تقيم، ولا تستطيع أن تقيم، وزنًا للحساسية الإنسانية.

وكان لا بد له أن يجلس في غرفة الشهود، فيذكر المشادَّة التي وقعت، منذ بضع ساعات، بين أبيه وبين أم جرسلو، ومن هناك يدخل إلى قاعة الجنايات. وما أن دخل حتى اشرأبت الأعناق، وتطلعت الأبصار. وتصدر الرئيس بين زميليه. وتبدى النائب العام في ردائه الأحمر. وجلس المحلفون إلى شمال المحكمة. ووقف روبير جرسلو في قفص الاتهام إلى اليمين، وقد طوى ذراعيه، وعلى وجهه غبرة ترهقها قترة، ولكنه كان رابط الجأش. وتدفقت الجموع، لتأخذ مكانها بالقاعة. ورأى أندريه أباه بين الشهود فكاد المنظر يدمي قلبه. على أنه ظل ثابت الجنان، حين سأل الرئيس، المدافع عن المتهم، والنائب العام، عما إذا كانا لا يعارضان في سماع الشاهد، ثم سأله عن اسمه وصفاته وطلب منه حلف اليمين وفق الصيغة المعروفة. ولقد أجمع القضاة الذين شهدوا المحاكمة على أن لا شبيه لذاك الأثر البالغ الذي تملك نفوس الحاضرين ونفوسهم هم، حين وقف ذاك الرجل، الذي عرف الكل من مقالات الصحف التي نشرت على ذكر القضية، ماضيه الحافل بالبسالة ـ فقال بلهجة ثابتة، ولكنها تشف عن الألم الذي يحز في النفس:

ـ "حضرات المحلفين، ليس لدي إلا كلمتان. إن أختي لم تُقتل. بل قتلت نفسها. وتلقيت منها، في اليوم السابق يوم موتها، خطابًا تعلن فيه عزمها على الموت، ولماذا.. واعتقدت، يا سادتي، أن من حقي أن أكتم هذا الانتحار، فحرقت هذا الخطاب.. ولئن كان الرجل

الماثل أمامكم" ـ وأشار إلى جرسلو بيده غير ملتفت إليه إلا قليلًا ـ "لم يصب السم، فقد صنع ما هو أسوأ.. لكن قصاصه ليس من اختصاص عدالتكم، وما ينبغي أن يقضى عليه كقاتل.. فهو بريء.. ولئن أعوزني الدليل المادي الذي أستطيع تقديمه إليكم على تلك البراءة، فإني أحمل لكم قولي".

وتساقطت تلك العبارات واحدة بعد واحدة، فأحزنت قلوب الحاضرين جميعًا. وسمعت صيحة أعقبها أنين. وقال صاحب الصيحة:

ـ "إنه لمجنون، إنه لمجنون، لا تصغوا إليه".

فقال الكونت أندريه وقد عرف لهجة المركيز، فالتفت إلى الشيخ الفاني، وهو يكاد يتهدم فوق مقعده: "كلا، يا أبتي، ما أنا بمجنون.. ولقد فعلت ما يقضي به الشرف.. وأرجو، يا سيدي الرئيس، ألا أكره على أن أقول أكثر مما قلت".

وشف صوته عن التوسل حين نطق بهذه العبارة، وهو الرجل الذي تفيض نفسه عزة وكبرياءً. فتذمر الحاضرون حين أجابه الرئيس:

ـ "لا أستطيع، يا سيدي، على كره مني، أن أجيب سؤلك. فإن خطورة الشهادة التي أديتها الآن، لا تسمح للعدالة أن تركن إلى أقوال مبهمة، بل يملي علينا واجبنا، أن نضطرك إلى بيانها".

ـ "حسن يا سيدي، وسأقوم، أنا الآخر، بواجبي إلى النهاية". ودلت لهجة الشاهد على العزم، فانقطع التذمر، وساد الصمت. وسمع الرئيس وهو يقول:

ـ "لقد تكلمت، يا سيدي، عن خطاب، كتبته إليك الآنسة أختك.. فائذن لي أن أقول لك إن من العجيب ألا يكون قد خطر ببالك لأول وهلة أن تنير العدالة بتقديمه إليها".

ـ فقال الكونت: "لقد تضمن سرًّا وددت أن أكتمه ولو بذلت في ذاك السبيل دمي".

ولقد روى فيما بعد إلى مكسيم دي بلان الذي حفظ عهد الصداقة والود إلى نهاية المأساة، أن تلك كانت اللحظة التي احتمل فيها أقسى التضحيات ـ ثم تضاعف الشعور حتى ذهب أثره. وأفضى بكل ما احتواه خطاب تلك التي قضت. والمضض الذي عاناه. والألم الذي قاساه. وما يذكر إلا أنه جلس في مقعد الشهود، حيث حمل أبوه، إذ خر مغشيًّا عليه، حين فاه بالعبارات الأخيرة من شهادته.. ونهض النائب العام فتخلى عن الاتهام.. ولا يستطيع أن يقدر الوقت الذي مضى بين كلمات النائب العام، ودفاع محامي جرسلو، وخروج المحلفين بقرار البراءة. وما يذكر إلا أن الحارس دعاه للخروج حين خلت القاعة، فخرج أمامه مسرعًا. ورآه بعض أهالى "كومبروند" بعد أن شهدوا جلسة الجنايات، في طريقه إلى تلك القرية. وخرج

من فندق فيها حيث كان يكتب بضع خطابات موجَّه أحدها إلى أبيه، والآخر إلى أمه، والثالث إلى رئيسه، والأخير إلى مكسيم دي بلان. وما حانت الساعة التاسعة حتى كان يطرق باب فندق "كومرس" في مدينة "ريوم" حيث قال له المسيو دي جوسات إن والدة من بُرِّئ قد نزلت، فسأل الحارس عما إذا كان المسيو جرسلو حاضرًا، ولقد سمع هذا الغلام رواية الجلسة المحزنة. فما أن رأى الضابط أمامه، في ثوبه الرسمي، حتى أدرك، وهداه حسن التقدير لأن يجيب بأن المسيو روبير جرسلو لم يظهر إطلاقًا. ومن سوء الطالع أن اعتقد بأنه يحسن صنعًا إذا هو صعد إلى الشاب في الحال، ولم تمض ساعة على خروجه من السجن، فكان مع أمه والمسيو أدريان سكست. ولم يجد هذا الأخير سبيلًا إلى مقاومة توسلات الأرمل التي ما كادت تراه في بهو الفندق حتى ناشدته أن يعينها على استقرار ولدها.

ـ وطلب هذا الرجل أن يؤذن له بمخاطبة جرسلو على حدة فقال له: "حذار يا سيدي، فإن الكونت دي جوسات يجد في البحث عنك".

ـ فسأل جرسلو بلهفة: "أين هو؟"

ـ فأجاب الحارس: "ما أظنه قد غادر الشارع. ولكني قلت له بأن الناس لم يروك هنا".

ـ فرد جرسلو الجواب: "لقد أخطأت". وتناول قبعته، وأسرع إلى السلم.

ـ فتوسلت إليه أمه: "أين تذهب؟"

فلم يجب الشاب. ولعله لم يسمع تلك الصيحة. فلشد ما هبط السلم مسرعًا. إذ خشي أن يعتقد الكونت أندريه، أن قد بلغ منه الجبن مبلغًا جعله يتوارى منه. ولم يطل به البحث عن عدوه. فلقد كان الكونت في الجانب الآخر من الشارع يرقب الباب. فعرفه روبير وقصد إليه فسأله في إباء وعزة:

ـ "هل لديك ما تقوله لي، يا سيدي؟"

ـ فقال الكونت: "نعم".

ـ فمضى جرسلو يقول: "أنا رهين إشارتك في أي إصلاح ترى أن تتطلبه مني، وأعاهدك في ألا أبرح ريوم".

فأجاب أندريه دي جوسات: "كلا، يا سيدي، إن الإنسان لا يقاتل مثلك بل يقتله".

وتناول المسدس من جيبه. وبما أن الأخير لم يفر، بل وقف أمامه ولسان حاله يقول: "اجترئ". فقد أفرغ رصاصة في رأسه. وسمع من بالفندق، في وقت واحد، طلق المقذوف الناري، وصرخة نزع. ولما أقبل الناس وجدوا الكونت أندريه واقفًا أمام الحائط، وقد ألقى سلاحه، وطوى ذراعيه، وقال مشيرًا إلى جثة عاشق أخته، وهي ملقاة تحت قدميه:

"هذا جزاء حق. وقصاص عادل".

ثم أسلم نفسه طائعًا.